الآيات الكونية في سورة الغاشية

بحث مقدم إلى حولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين
بالقاهرة – العدد الخامس والعشرون ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م

دكتور

شعبان رمضان محمود مقلد

أستاذ مساعد التفسير وعلوم القرآن
بكلية التربية للبنات بدومة الجندل
المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[1] .

أحمد الله – سبحانه وتعالى – حمداً يليق بجلاله ، وأصلي وأسلم على نبيه محمد ﷺ وعلى كافة أنبيائه ورسله أجمعين .

أما بعد

فإن الله – سبحانه – قد من على البشرية بخاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ وأتم عليه وعلى أمته النعمة بأن أنزل عليه القرآن الكريم ، الذي جاء معجزاً في كل جوانبه ، فما من زاوية من زواياه ينظر إليها الإنسان العاقل بشيء من الموضوعية إلا ويرى منها جانباً من جوانب الإعجاز ، فالقرآن معجز في استعراضه التاريخي لأخبار الأمم السابقة ، معجز في خطابه للنفس البشرية ، معجز في إشاراته إلى العديد من المخلوقات في هذا الكون إلى آخر هذه الزوايا التي لا تعد ولا تحصى .

وقد ورد في القرآن الكريم من هذه الزاوية – زاوية الإشارات القرآنية إلى ما في هذا الكون – ما يقرب من ألف آية صريحة تحوي العديد من الإشارات الكونية .

---

(١) سورة الأنعام آية ١.

وهذه الآيات لم ترد عبثاً – تعالى الله أن يكون من كلامه الكريم ما هو عبث – وإنما وردت لأهداف سامية ، وقيم عظيمة ، ومنها : الشهادة لله – سبحانه – بالألوهية والوحدانية والربوبية ، والشهادة له – سبحانه – بطلاقة القدرة ، وكمال الإبداع ، وكثير من صفات الجلال والكمال ، إنها أهداف يتوقف عليها فوز الإنسان ونجاته .

ولما لهذه الإشارات الكونية من هذه الأهمية العظيمة للبشرية بأكملها ، ولما لها من أهمية كبري في حقل الدعوة إلى الله سبحانه.

كذلك لما لها من مكانة في تصحيح فكر المسلم السوي ، أقول لهذا كله أحببت أن أشارك ولو بلبنة في صرح إبراز تلك الإشارات، داعياً ربي أن تكون هذه المشاركة سبباً في استقامتي واستقامة قارئها على طريق الحق .

وقد نظرت في الآيات الكونية في القرآن الكريم ، فإذا بآيات أربع جاءت في معرض الحديث عن الآخرة وما يلقاه في هذا اليوم، وإذا بي أجد هذه الآيات أشبه برابط يربط أحوال الآخرة بالدعوة والتذكير في الدنيا ، وأجد نفسي شغوفاً بالقراءة والبحث في هذه الآيات ، خاصة وأن السورة التي تضم هذه الآيات نقرؤها كثيراً ، ونسمعها دائماً ، ويقرؤها الكثير من أبنائنا الصغار ، وترتبط بنا بمناسبات وبأوقات محددة ، كان يداوم رسولنا ﷺ على قراءتها في خير أيام الأسبوع يوم الجمعة فقد ثبت في السنة الصحيحة من حديث النعمان بن بشير ﷺ وأرضاه أنه سئل : (بم كان النبي ﷺ

كان النبي ﷺ يقرأ يوم الجمعة ؟ قال : بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[1].

وقد اتبعت في بحثي هذا طريقة الجمع والاستقصاء والترتيب، ثم التحليل والاستنباط قدر استطاعتي ، وما يتطلبه البحث ، رابطاً بين أقوال المفسرين وبعض الثقات من علماء الإعجاز ، دون تطويل ممل أو اختصار مخل .

هذا وقد اقتضت طريقة تنظيم البحث أن يكون في مقدمة وأربعة مباحث وخاتمة ، على النحو التالي :

أما المقدمة فأبرزت فيها أسباب اختياري لهذا الموضوع ، وطريقة معالجته ، وطريقة تنظيمه .

والمبحث الأول : التعريف بالآيات الكونية وفوائد دراستها ، ويشتمل على : التعريف بالآيات الكونية – مبررات الاهتمام بالإشارات الكونية – فوائد دراسة الآيات الكونية – ضوابط التعامل مع الآيات الكونية .

---

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن صورة ت ٢٧٩ هـ) في الجامع الصحيح ، باب : ما جاء في القراءة في صلاة الجمعة ، حديث رقم ٥١٩، تحقيق إبراهيم عطوة ط/ دار إحياء التراث العربي – بيروت ، والنسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن شيب ابن علي) في سننه ، باب : ذكر الاختلاف على النعمان بن بشير في القراءة في صلاة الجمعة ، حديث رقم ١٤٢٤، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي ط ١ دار الفكر ١٣٤٨هـ ، وابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥ هـ) في سننه ، باب : ما جاء في القراءة في الصلاة يوم الجمعة برقم ١١٢٠ تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ط / دار الحديث القاهرة ١٩٩٤ م .

المبحث الثاني : التعريف بسورة الغاشية وما تتناوله من موضوعات ، ويشمل هذا المبحث : تفسير موجز لسورة الغاشية – الموضوعات التي تتناولها سورة الغاشية – صلة الآيات الكونية بحديث الغاشية .

المبحث الثالث : الآيات الكونية في سورة الغاشية وفيه ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾، ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ، ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾، ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

المبحث الرابع: صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة ويتناول: صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة – واجب المسلم تجاه الآيات الكونية .

وأخيراً الخاتمة : وتتضمن أهم نتائج البحث، ثم أهم مصادره.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل .

الباحث

د/ شعبان رمضان محمود مقلد

المبحث الأول

التعريف بالآيات الكونية

وفوائد دراستها

أولاً – التعريف بالآيات الكونية :

الآية العلامة ، والجمع آيات وآي ، وأيا آية وضع علامة ، والآية من التنزيل ومن آيات القرآن العزيز ، قال أبو بكر : سميت الآية من القرآن آية ؛ لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام ، ويقال سميت الآية آية لأنها جماعة من حروف القرآن وآيات الله عجائبه، والآية : العبرة وجمعها : الآيات والعبر[١] .

والآية : هي العلامة الظاهرة ، وحقيقة لكل شيء ظاهر ، وهو ملازم لشيء لا يظهر ظهوره ... ولكل جملة من القرآن دالة على حكم آية ... وقوله تعالي : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٢]، فهي من الآيات المعقولة التي تتفاوت بها المعرفة بحسب تفاوت منازل الناس في العلم، وكذلك قوله ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ ﴾ [٣] ، وكذا قوله ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ

(١) لسان العرب مادة (أيا) ٦١،٦٢/١٤ للعلامة ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٦٣٠ – ٧١١ هـ) ط دار الفكر ، دار صادر بيروت – لبنان – ط/ ثالثة ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
(٢) سورة الجاثية آية ٣.
(٣) سورة العنكبوت آية ٤٩.

فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾[١][٢] .

فالآية في اللغة : العلامة الدالة على الشيء بحيث إذا ظهرت العلامة اتضح وجود ذلك الشيء .

وفي المصطلح الإسلامي : نوعان من العلامة الدالة على وجود الباري أو إحدى صفاته – أسمائه الحسنى – وهما :

ما دل بوجوده المتقن على خالق حكيم ، وبنظامه المحكم على رب يدبر شئون الخلق وفق نظام محكم نسميه بسنن الله في الكون . فمثال الأول قوله تعالى: ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[٣] .

فقد ذكر الله – تعالى – في أمثال هذه الآيات القرآنية أنواعاً من الخلق تدل بوجودها على وجود خالقها ، ولذلك يسميها الآيات .

ومثال الثاني قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ *

---

(١) سورة يوسف آية ١٠٥.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني ، مادة (أي) ، ط/ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .
(٣) سورة الغاشية الآيتان ١٧، ١٨.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾[١] .

ذكر الله في أمثال هذه الآيات القرآنية أنواعاً من النظام الكوني الذي يدل على وجود الرب المدبر الحكيم ، وقد يجمع الله في الذكر بين الآيات الدالة على الخالق العزيز والرب المدبر الحكيم ، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

ذكر الله تعالى في أول الآية خلق السموات والأرض ، وذكر بعدها آيات النظام الكوني الذي قدره الرب والتي نسميها بسنن الله في الكون .

(كون) الكون : الحدث وقد كان كوناً وكينونة عن اللحياني وكراع ، والكينونة في مصدر كان يكون أحسن ، وكون الشيء أحدثه ، ومكون الأشياء يخرجها من العدم إلى الوجود[٣] .

والكون عند أهل التحقيق عبارة عن وجود العالم من حيث هو عالم لا من حيث أنه حق ، وإن كان مرادفاً للوجود المطلق العام ،

(١) سورة النحل الآيات ١٠- ١٣ .
(٢) سورة البقرة آية ١٦٤.
(٣) لسان العرب مادة (كون) .

عند أهل النظر وهو بمعنى المكون عندهم و وقيل الكون : حصول الصورة في المادة بعد أن لم تكن فيها[١] .

وقال الراغب : الكون يستعمله بعضهم في استحالة جوهر ما إلى ما هو أشرف منه ، وكثير من المتكلمين يستعملونه في معنى الإبداع[٢] .

والكون : اسم لما حدث رفعة كانقلاب الماء هواء فإن الصورة الهوائية كانت ماء بالقوة فخرجت منها إلى الفعل دفعة فإذا كان على التدريج فهو الحركة[٣] .

ويقصد بالكون – حسب المعلومات والاكتشافات التي أدركها الإنسان – هذا الفضاء الرحيب الممتد والذي لم تعرف له نهاية ، حيث تنتشر فيه وتتوزع – بحساب وجلال وحكمة – عدد كبير من المجرات ، وهي عبارة عن جزر كونية هائلة ملتهبة ينتظم فيها – بتقدير من رب العالمين – بلايين من الأجرام السماوية المنوعة ، والكون بصيغته الربانية هو هذه السماوات والأرض وما بينهما[٤].

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف ٦١٢/١ فصل الواو ، محمد بن عبد الرؤوف المناوي ٩٥٢-١٣٠١ هـ ، ط: دار الفكر المعاصر ، بيروت، تحقيق : محمد رضوان الداية و ط : أولى ١٤١٠ هـ .

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم للراغب الأصفهاني ، مادة (كان) .

(٣) التعريفات ٢٤١/١ على بن محمد بن على الجرجاني ٧٤٠-٨١٦هـ ط: دار الكتاب العربي – بيروت ، ط : أولى ١٤٠٥هـ تحقيق : إبراهيم الإبياري .

(٤) انظر: بحث (السماء بناء وزينة)، إدريس الأشقر، الشبكة العالمية للإنترنت، موقع: الهيئة العالمية للإعجاز العلمي..www. nooran. org

وعلى ذلك يكون معني الآيات الكونية : مخلوقات الله في هذا الفضاء الرحيب الممتد ، وعلاماته الدالة على عظمة خالقها وسعة علمه – سبحانه – وتمام قدرته كالسماوات والأرض والشمس والقمر والجبال والنجوم والشجر والدواب والناس .

ثانيا – مبررات الاهتمام بالإشارات الكونية :

إذا كان القرآن الكريم يحتوي على ما يقرب من ألف آية تتحدث عن الكون ، ومكوناته ، وظواهره ، بالإضافة إلي آيات أخرى كثيرة تقترب دلالاتها من الصراحة .

فإن من الواجب على أمة الإسلام أن ينفر منها في كل جيل نفراً من علماء المسلمين ، الذين يتزودون بالأدوات اللازمة، للتعرض لتفسير كتاب الله، من مثل الإلمام التام باللغة العربية، وعلومها المختلفة، وبأصول الدين، وبأسباب النزول، وبالناسخ والمنسوخ، وبالمأثور من التفسير، وبجهود السابقين من كبار المفسرين، وبالقدر اللازم من العلوم المتاحة عن الكون ، ومكوناته، وغير ذلك مما يحتاجه كل من يتشرف بمثل هذه المهمة العظيمة، فيجعل هؤلاء النفر هذه الآيات التي تتحدث عن الكون موضع دراساتهم وأبحاثهم لاسيما وأن المعارف الكونية في تطور مستمر لا يتوقف .

ومن ينظر في هذا الكون العجيب من خلال آيات القرآن الكريم لتزداد دهشته ، وذلك حين يدرك كيف أن القرآن قد جعل من التفكر في الكون، والتتبع لمعرفة قوانين الحياة الطبيعية ،

وتسخير قواها للإنسان ، كيف جعل من ذلك كله عبادة من أجل العبادات الإسلامية .

ولنصغ قليلاً إلى القرآن ووحيه ، وهو ينمي في المؤمن قواه العقلية ، ويدفع بطاقاته الفكرية نحو العلم ، نحو المعرفة ، نحو القوة والتقدم .

أليس من يتأمل قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[1] ، أليس في تأمل مثل هذه الآية الحث على دراسة كيفية نشأة عوالم السماء وعلى التعرف على علوم الفضاء، ألا يكون في ذلك دفع للمسلم لمعرفة كيفية نشأة الأرض والحياة فيها، وإرشاد للمسلم أن يتعرف على سبب اختلاف الليل والنهار، ألا تكون هذه الآية ترغيباً للمسلم على دراسة المواصلات البحرية، ومعرفة مقدمات نزول المطر، وقوانينه الطبيعية الربانية، مع دراسة علوم الأحياء الحيوانية والنباتية، والإطلاع على نظام سير الرياح، وتقلباتها، وقوانينها.

ثم ما هو المقصود من مثل قوله تعالى :﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا

(١) سورة البقرة آية ١٦٤.

يُؤْمِنُونَ ﴾ [١] أليست هذه الآيات ومثيلاتها إيحاء من القرآن لتنمية القوى الفكرية والعقلية عند المسلمين، حتى يندفعوا إلى دراسة علوم الكواكب والنجوم، وطبقات الأرض والجبال، وعلم الحيوان، ثم ليتخذوا من هذه الدراسات العلمية والفكرية طريقاً يوصلهم إلى معرفة الله بمعرفة بديع قانونه، وخشيته حق الخشية بمشاهدة نظامه.

ونلخص مبررات الاهتمام بالإشارات الكونية في القرآن الكريم فيما يلي :

١ – أن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، والآيات الكونية لا تفهم فهماً كاملاً في إطار اللغة وحدها، انطلاقاً من شمول الدلالة القرآنية، ومن كلية المعرفة التي لا تتجزأ .

٢ – أن الإسلام والمسلمين يتعرضان اليوم لهجوم ظالم في جميع وسائل الإعلام العالمية والمحلية ؛ بسبب إنكار غير المسلمين لنبوة المصطفى ﷺ ، وإنكارهم الوحي بالقرآن الكريم ، والإشارات الكونية خير دليل لأهل عصرنا – عصر العلوم والتقنيات المتقدمة– على حجية ذلك كله، وباللغة التي يفهمونها .

٣ – تقصير المسلمين في التبليغ عن الله – سبحانه وتعالي – وعن رسوله ﷺ تقصيراً كبيراً، ولذلك وصلنا إلى ما وصلنا إليه من تكتل لأهل الباطل علينا، وتآمرهم على ديننا ومقدساتنا وأعراضنا وأموالنا وأراضينا، وخير وسيلة لتبليغ هؤلاء القوم اليوم فضل

(١) سورة يونس آية ١٠١.

الإسلام على غيره من الأديان، وفضل القرآن على غيره من الكتب هو ما ورد من حقائق علمية راسخة في كل من كتاب الله – سبحانه وتعالى – وفي سنة رسول الله ﷺ ؛ لأن العلم قد اصبح الوسيلة المقنعة لأهل عصرنا .

٤ – أن العالم قد اصبح قرية صغيرة تلتقي فيها كل الثقافات، وثقافة عصرنا الراهن ترتكز على العلوم البحتة والتطبيقية وما تنتجه من تقنيات مختلفة ولذلك فإن إثبات سبق كل من القرآن الكريم والسنة المطهرة بالإشارة إلى العديد من حقائق الكون هو من أنجح الوسائل لإقناع أهل عصرنا بصدق القرآن الكريم وبصدق نبوة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

٥ – أن المؤامرة الدولية على الإسلام والمسلمين قد أسقطت من أيدينا كل سلاح نستطيع به الدفاع عن أنفسنا، وأراضينا، وعن ديننا، ومقدساتنا، وأعراضنا، وكرامتنا ولكن على الرغم من ذلك فقد بقي بأيدينا سلاح الدعوة إلى الله على بصيرة بلغة العصر، ومنه الإعجاز العلمي في القرآن الكريم وفى السنة النبوية المطهرة، والذي لو أحسنا توظيفه في الدعوة إلى دين الله لفتح الله – تعالى – علينا الدنيا من أطرافها، والتجارب المحدودة في هذا المجال تثبت جدوى ذلك وأهميته .

٦ – أن الزمان الذي نحيا فيه والذي يعرف باسم " زمن العلوم والتقنية " قد توفر فيه للإنسان من المعرفة بالكون ومكوناته ما لم يتحقق لجيل من البشر من قبل، لذلك فإن النظر الآن في هذه

الآيات الكونية الواردة في كتاب الله، على ضوء الحقائق العلمية المتوفرة لنا اليوم ، يعتبر من أوضح البراهين على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم[١].

ثالثاً – فوائد دراسة الآيات الكونية :

إن فهم الإشارات الكونية في كتاب الله ، على ضوء ما تجمع للبشرية اليوم من معارف ، وتقديمها للعالم كواحد من الأدلة العديدة على أن القرآن الكريم هو كلام الله أنزله بعلمه ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والذي حفظ بحفظ الله ، يعتبر فتحاً جديداً للإسلام ، وإنقاذاً للبشرية من الهاوية بسبب تقدمها العلمي والتقني المذهل وتضاؤل روح الإيمان بالله ، وانعدام خشيته عند كثير من الناس ...

ووسيلتنا في تحسين صورة الإسلام في العالم هي حسن الدعوة إليه بالكلمة الطيبة، والحجة الواضحة، والمنطق السوي. وخير ما نقدمه في ذلك المضمار مما يتناسب مع طبيعة العصر ولغته هو الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ... ونشاهد في بعض المؤتمرات العلمية الإسلامية إقبال البعض من قمم الفكر والعلم والرأي على الإسلام في الغرب والشرق .

---

(١) قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها بقلم الأستاذ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار : (بحث مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة بجامعة الزرقاء) ص ٧٥ ، ٧٦ ، وانظر : من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، د/ زغلول النجار ١٩/١ . (بتصرف يسير) ط: مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة ، ط عاشرة ١٤٢٦ هـ ٢٠٠٥ م ، تقديم : أحمد فراج .

والكون صنعة الله ، والقرآن هو كلام خالق الكون ، ولا يمكن أن يتعارض كلام الله الخالق مع الحقائق التي قد أودعها في خلقه، إذ اتبع الناظر في كليهما المنهج السليم، والمسلك الموضوعي الأمين، فمن صفات الآيات الكونية في كتاب الله أنها صيغت صياغة معجزة يفهم منها أهل كل عصر معنى من المعاني في كل آية من تلك الآيات الدالة على شيء من أشياء الكون أو ظواهره أو نشأته أو إفنائه وإعادة خلقه ، وتظل تلك المعني تتسع باتساع دائرة المعرفة الإنسانية في تكامل لا يعرف التضاد ، وهذا من أعظم جوانب الإعجاز في كتاب الله، ومن هنا كانت ضرورة استمرارية النظر في تفسير تلك الآيات الكونية .

ومن هنا أيضاً كان واجب علماء المسلمين في مدارسة تلك الآيات الكونية مستفيدين بكل أنواع المعارف المتاحة في تفسيرها وإظهار جوانب الإعجاز بها، في حجة واضحة ومنطق سوي وذلك تأكيداً لإيمان المؤمنين ، ودحضاً لافتراءات المفترين ، وتثبيتاً للحقيقة الراسخة لأن القرآن كلام الله العزيز الرحمن الرحيم .

ومن هنا كذلك كان التسليم بأن تلك الإشارات الكونية لم ترد في القرآن الكريم بهدف التبليغ بالحقيقة العلمية، لأن الحكمة الإلهية قد تركت مجالاً مفتوحاً لاجتهاد المجتهدين، يتنافس فيه المتنافسون، ويتبارى المتبارون، أمة بعد أمة، وجيلاً بعد جيل، إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها[١] .

(١) مقال: من أسرار القرآن " الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية (١١٥)" بقلم د. زغلول النجار عرض موجز لسورة

إذن فلدراسة الإشارات الكونية والإعجاز العلمي أهمية كبرى في حياة المسلمين الآن بوجه عام، وفي حياة المثقف المسلم بوجه خاص، إذ أنها تفيد المسلم في فهم دلالة الآيات فهماً عميقاً ، ويتعمق إيمانه بصدق القرآن الكريم بالإشارة إلى هذه الحقيقة ، ويزيد الإيمان في قلبه، فيزيده يقيناً بما في القرآن .

فالإعجاز يدعو غير المسلمين لقراءة القرآن الكريم قراءة متأنية هادفة، والنظر فيه من مدخل الآيات الكونية، كما حدث مع عشرات العلماء، مثل موريس بوكاي وكيت مور وكثير من الذين أسلموا[١] .

وجاء في إبراز رواد الإعجاز لهذه الأهمية :

* امتداد بينة الرسالة في عصر الكشوف العلمية ، فإذا كان المعاصرون لرسول الله قد شاهدوا بأعينهم كثيراً من المعجزات ، فإن الله أري أهل هذا العصر معجزة لرسوله تتناسب مع عصرهم، ويتبين لهم بها أن القرآن حق، وتلك البينة المعجزة هي : بينة الإشارات الكونية والإعجاز العلمي في القرآن والسنة، وأهل عصرنا لا يذعنون لشيء مثل إذعانهم للعلم ، علي اختلاف أجناسهم وأديانهم .

الغاشية جريدة الأهرام القاهرة – العدد ٤٢٧٧٠ السنة ١٢٧ بتاريخ الآثنين ١٢ يناير ٢٠٠٤ م باب : قضايا وآراء .

(١) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، د. زغلول النجار ١/٣٤،٣٣ .

* تصحيح مسار العلم التجريبي، فالله ﷻ أمر بالنظر في الكون بأسره، الذي تقوم عليه العلوم التجريبية طريقاً إلى الإيمان به، وطريقاً إلى الإيمان برسوله ولكن أهل الأديان المحرفة كذبوا حقائقه، وسفهوا طرقه، واضطهدوا دعاته، فواجههم حملة هذه العلوم التجريبية، بإعلان الحرب على تلك الأديان، فكشفوا ما فيها من أباطيل، وأصبحت البشرية في متاهة، تبحث عن الدين الحق، الذي يدعو إلى العلم، والعلم يدعو إليه. إن بإمكان المسلمين أن يتقدموا لتصحيح مسار العلم في العالم، ووضعه في مكانه الصحيح، طريقاً إلى الإيمان بالله ورسوله، ومصدقاً بما في القرآن، ودليلاً على الإسلام .

* تنشيط المسلمين للاكتشافات الكونية، بدوافع إيمانية . فالتفكر في معاني الآيات والأحاديث عبادة، وتقديمها للناس دعوة إلى الله. وهذا كله يتحقق من خلال الإشارات الكونية والإعجاز العلمي في القرآن والسنة وهذا من شأنه لأن يحفز المسلمين على اكتشاف أسرار الكون بدوافع إيمانية تعبر بهم فترة التخلف التي عاشوها فترة من الزمن في هذه المجالات[١] .

ومما تقدم كله تتضح أهمية دراسة الآيات الكونية فهي قراءة عصرية لدستور الأمة القرآن الكريم ومحاولة عصرية لإعادة بناء حضارتنا الإسلامية والعربية، لكي تستعيد أمجادها وتعود راسخة الأقدام على درب النهوض ويستمر ازدهارها .

(١) بحث : الإعجاز العلمي تأصيلاً ومنهجاً، من أبحاث الأمانة العامة لهيئة الإعجاز العلمي. الشبكة العالمية للإنترنت (موقع رابط العالم الإسلامي، هيئة الإعجاز العلمي)..www. nooran. org

ومما تقدم أيضاً نستلهم الحاجة إلى اليقظة والتأمل، وإلى إعادة القراءة الواعية للآيات الكونية في القرآن الكريم؛ وذلك لكي نربط آيات القرآن الكريم بواقع الحياة وحاجات العصر، ودقائق العلوم، وتوسيع الدائرة العلمية والثقافية لدي المسلم المتمسك بدينه بتأصيل المعارف في ذهنه عن طريق حفظه لكلام الله والعمل به، ودراسة ظواهر الكون من خلال آياته ، وكذلك الجمع بين علوم القرآن وعلوم الحياة، لكي توافق الدراسة فطرته ، وتحقق العبودية لله، فتسخر العلوم المختلفة لإبراز عظمة الخالق، ودقة صنعه، وتفرده، وفتح آفاق التوسع في العلم، والتجربة، والاختراع .

رابعاً – ضوابط التعامل مع الإشارات الكونية :

الإشارات الكونية لها أهميتها في علم التفسير، فهي ليست كأي أفكار أو إشارات يخوض فيها كل من أراد الخوض، لكن لصلتها بكتاب الله ﷻ دستور الأمة ونبراسها المضيء وقانون السماء في الأرض؛ أقول لهذه الصلة لابد له من ضوابط للتعامل معها وضعها أهل الاختصاص، إلى جانب ضوابط التفسير التي تعارف عليها المفسرون منذ القدم، ومن هذه الضوابط .

١ – حسن فهم النص من القرآن الكريم وفق دلالات الألفاظ في اللغة العربية، وحسب قواعدها، وأساليب التعبير فيها؛ لأن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، ولذلك فالنص مقدم على الظاهر، والظاهر مقدم على التأويل .

٢ – فهم أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمأثور من تفسير المصطفى للتأصيل الإسلامي للمعرفة، والإلمام بجهود المفسرين السابقين .

٣ – جمع النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع الواحد والقراءة الصحيحة لها، ورد بعضها إلى بعض مع مراعاة السياق القرآني وعدم اجتزاء النص عما قبله وعما بعده، ومراعاة أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وتوظيف كل من الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المتعلقة بالموضوع الواحد في فهم النص القرآني؛ لأن القرآن الكريم يفسر بعضه بعضاً، كما تفسره أقوال رسول الله ﷺ .

٤ – عدم التكلف، أو لي أعناق الآيات من أجل موافقتها للنظريات العلمية؛ لأن القرآن الكريم أعز علينا وأكرم من ذلك؛ انطلاقاً من كونه كلام الله الخالق، ومن حقيقة أن الخالق هو أدرى بخلقه من كل المخلوقين .

٥ – مراعاة التخصص الدقيق لكل محقق لموضع من موضوعات الإشارات الكونية والإعجاز العلمي في كتاب الله – كل في حقل تخصصه–؛ لأن هذا ليس مجالاً للخوض من كل خائض ، وهنا يجب التفريق بين تحقيق المحقق ونقل الناقل[1].

(١) السماء في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز العلمي) ص ٧٠، ٧١ د. زغلول راغب محمد النجار ، ط/ دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ط الثانية ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٥م ، وانظر : النبات في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز العلمي) : د. زغلول النجار ، ص ٢٢ .

٦ – يجب تحري الدقة والأمانة في التعامل مع كتاب الله، والتجرد عن كل هوى شخصي حتى يتحقق إخلاص النية في ذلك .

٧ – الاهتمام بتوظيف الحقائق العلمية في تفسير الآيات الكونية الواردة في كتاب الله – تعالي – وفي سنة خاتم أنبيائه ورسله ﷺ باستثناء حالة واحدة؛ وهي حالة الآيات والأحاديث التي تفصل قضايا الخلق والإفناء والبعث بأبعادها الثالثة .

٨ – كذلك يجب أن يراعى التفريق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي، للقرآن الكريم، إذ التفسير العلمي توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية، وهذه المعارف قد تكون حقائق وقوانين، كما قد تكون فروضاً ونظريات[1] .

---

(١) اختلف العلماء والمفسرون حول جواز التفسير العلمي للقرآن على ثلاثة آراء فمنهم من قال بعدم جوازه نهائيا، وحجتهم الأساس: أن القرآن كتاب هداية وليس كتابا علميا، وعرف هؤلاء بالمضيقين ، ومنهم من يقول بان القرآن فيه كل العلوم ، وما من شاردة ولا واردة إلا وقد أشار إليها القرآن ، وعرف هؤلاء بالموسعين ، وفريق ثالث يقف موقفا وسطا، أي يرون أنه لا خلاف في أن القرآن في الأصل كتاب هداية، وبجوار ذلك هو أيضا كتاب إعجاز، ففيه أكثر من ألف آية صريحة تشير إلى العديد من حقائق الكون وظواهره ، وهي مما لا يمكن فهمه فهما كاملا في الإطار اللغوي فقط ، بل لابد من توظيف المعارف العلمية المتاحة لنا في كل تخصيص من التخصصات التي تشير إليها آيات الكتاب العزيز، ومع ذلك فإن هؤلاء أصحاب الموقف الوسط. حرص كثير منهم ، على ألا يتم تأويل الإشارات العلمية ، الواردة في القرآن الكريم إلا في ضوء الحقائق العلمية المؤكدة من القوانين والقواعد الثابتة، أما الفروض والنظريات فلا يجوز تقديمها في فهم ذلك، والبعض منهم يعتبر هذا الموقف تحفظا مبالغا فيه، فكما يختلف دارسو القرآن الكريم في فهم بعض الدلالات اللفظية، والصور البيانية، وغيرها من القضايا اللغوية ولا يجدون حرجا في ذلك العمل الذي يقومون به في غيبة نص ثابت مأثور ، فلا يرون حرجا في فهم الإشارات الكونية

أما موضوع الإعجاز العلمي فهو موقف من مواقف التحدي الذي نريد أن نثبت به للناس كافة أن هذا القرآن الذي أنزل قبل ألف وأربعمائة سنة على النبي الأمي ﷺ في أمة كان غالبيتها الساحقة من الأميين يحوي من حقائق هذا الكون ما لم يستطيع العلماء إدراكه إلا منذ عشرات قليلة من السنين، وهذا السبق يستلزم توظيف الحقائق، لا الفروض والنظريات[1] .

الواردة بالقرآن الكريم على ضوء المعارف العلمية المتاحة ، حتى ولو لم تكن تلك المعارف قد ارتقت إلى مستوى الحقائق الثابتة، وذلك لأن التفسير يبقي – في نظرهم – جهدا بشريا خالصا – فهو محاولة بشرية لحسن الفهم أن أصاب فيها المفسر فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد، ولا ينسحب خطره على جلال القرآن الكريم . انظر هذه المسألة بالتفصيل في : من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، د. زغلول النجار ، ط: مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة ، ط عاشرة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م ، تقديم : أحمد فراج ، ١/٢٥، ٢٧، والسماء في القرآن من ص ٣٣-٦٤، وقد عقد المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي فصلا كاملا لهذا الموضوع في كتابه : التفسير والمفسرون ، وإن كنت أرى أن هناك فرقا بين معنى التفسير العلمي عنده، ومعناه عند الفريق المعتدل، ولذلك نجده في نهاية الفصل يختار رأي الفريق القائل بعدم جواز التفسير العلمي؛ (انظر الفصل الثامن من ج٢ : التفسير والمفسرون ، ط: دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ط ثانية ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م) وتحقيق هذه المسألة تحقيقا تاما يحتاج إلى بحث مطول تناقش فيه وجهات النظر المختلفة من كل اتجاه .

(١) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. زغلول النجار ١/٣٥،٣٦ وانظر : قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها بقلم الأستاذ الدكتور/ زغلول رابغ محمد النجار (بحث مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة بجامعة الزرقاء) ص ٧٥، ٧٦ .

٩ – عدم التقليل من جهود السابقين الذين خدموا القرآن الكريم، في حدود المعارف العلمية التي كانت متاحة لهم كل في زمانه[١].

(١) قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها بقلم الأستاذ الدكتور زغلول راغب محمد النجار (بحث مقدم غلى مؤتمر كلية الشريعة بجامعة الزرقاء) ص ٧٥ ، ٧٦ ، وانظر : الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية ، ١٣٣ ، بقلم الدكتور / زغلول النجار، (مقال في جريدة الأهرام القاهرية) باب : قضايا وآراء . من أسرار القرآن ، بتاريخ الاثنين١٧ مايو ٢٠٠٤م .

المبحث الثاني

التعريف بسورة الغاشية
وما تتناوله من موضوعات

تفسير موجز لسورة الغاشية :

هذه السورة سميت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير ، وهي سورة مكية بالاتفاق ، نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف ، وآياتها ست وعشرون آية .

وقد ورد في الصحيح عند أصحاب السنن : عن النعمان بن بشير : (أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ويوم الجمعة بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[1].

تبدأ السورة الكريمة بتوجيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ بقول الله – سبحانه – : ﴿ هَلْ أَتَاكَ ﴾ أي قد أتاك يا محمد ﴿ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ يعني القيامة " سميت غاشية لأنها تغشى كل شيء بأهوالها ، فتنسيهم كل شيء ، وتجللهم بأفزاعها فتعميهم وتصرف أنظارهم عن أي شيء ، وقيل الغاشية النار ، سميت بذلك لأنها تغشى وجوه الكفار ، والخطاب موجه في الأصل إلى هذا النبي

(١) الحديث أخرجه الإمام الترمذي في جامعه الصحيح ، باب : ما جاء في القراءة في العيدين برقم ٥٣٣، والنسائي في سننه ، باب : القراءة في العيدين بـ ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ و ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾ ، برقم ١٥٦٨، وأبو داود (الإمام الحافظ أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني) في سننه ، باب : ما يقرأ في الجمعة برقم ١١٢٢ ط / المكتبة العصرية – صيدا – بيروت .

الخاتم والرسول الخاتم ﷺ ، ومن ثم فهو خطاب إلى الناس جميعاً ، فالتحذير من القيامة – التي وصفها القرآن الكريم بأسماء عديدة منها الغاشية والقارعة ، والطامة ، والصاخة – هو جزء رئيس من رسالة القرآن الكريم إلى الخلق أجمعين ، إنذاراً للناس ، وتحذيراً لهم من هول تلك المفاجأة ، وإحياء لها في قلوب وعقول وضمائر الناس حتى لا يغفلوا عنها ويعملوا لها قبل أن يفاجئوا بوقوعها .

ثم تعرض الآيات بمشهد من مشاهد العذاب لأهل النار من الكفار والمشركين ، والطغاة المتجبرين ، والفسقة المفسدين في الأرض فتقول :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ﴾ يعني يوم القيامة ﴿ خَاشِعَةٌ ﴾ يعني ذليلة، والمراد بالوجوه أصحابها، فعبر بالجزء عن الكل، ولأن الوجه أشرف أعضاء الإنسان فعبر به عنه ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ قال ابن عباس : يعني الذين عملوا ونصبوا في الدنيا على غير دين الإسلام من عبدة الأوثان وكفار أهل الكتاب، مثل الرهبان وأصحاب الصوامع لا يقبل الله منهم اجتهاداً في ضلالة بل يدخلون النار يوم القيامة ومعنى النصب الدأب في العمل بالتعب ...

ذليلة ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴾ تعمل ما تتعب فيه كجر السلاسل وخوضها في النار خوض الإبل في الوحل والصعود والهبوط في تلالها ووهادها ما عملت ونصبت في أعمال لا تنفعها يومئذ ﴿ تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً ﴾ قال ابن عباس : قد حميت فهي تتلظى على أعداء الله ﷻ ، وقرىء تصلى بالتشديد للمبالغة حامية متناهية

﴿ تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ أي متناهية في الحرارة قد أوقدت عليها جهنم مذ خلقت ، لو وقعت منها قطرة على جبال الدنيا لذابت ليدفعون إليها وروداً عطاشاً فهذا شرابهم ، ثم ذكر طعامهم فقال تعالى :

﴿ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ ضَرِيعٍ ﴾ قيل هو نبت ذو شوك لاطئ بالأرض تسميه قريش : الشبرق فإذا هاج سموه الضريع وهو أخبث طعام وأبشعه، وهو شوك ترعاه الإبل مادام رطباً، وقيل شجرة نارية تشبه الضريع، ولعله طعام هؤلاء، والزقوم والغسلين طعام غيرهم، أو المراد طعام ما تتحاماه الإبل وتعافه لضره وعدم نفعه، قال أبو الدرداء والحسن: إن الله تعالى يرسل على أهل النار الجوع حتى يعدل عندهم ما هم فيه من العذاب فيستغيثون فيغاثون بالضريع، ثم يستغيثون فيغاثون بطعام ذي غصة، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالماء فيستسقون فيعطشهم ألف سنة، ثم يسقون من عين آنية شربة لا هنيئة ولا مريئة، كما أدنوه من وجوههم سلخ جلود وجوههم وشواها، فإذا وصل إلى بطونهم قطعها، فذلك قوله: ﴿ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾[1] .

قال المفسرون : فلما نزلت هذه الآية قال المشركون إن إبلنا لتسمن على الضريع وكذبوا في ذلك، فإن الإبل إنما ترعاه مادام رطباً تسمى شبرقاً فإذا يبس لا يأكله شيء فأنزل الله : ﴿ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴾ يعني أن هذا الطعام لا تقدر البهائم على أكله

(١) سورة محمد آية ١٥.

فكيف يقدر الإنسان على أكله ؟ فهو إذا لا يسمن ولا يغنى من جوع...

وهذه الآيات الست تصف وجوه أهل النار المعذبين من الكفار والمشركين، والظلمة والمفسدين في الأرض بأنها سوف تكون خاشعة من الذل، والإرهاق، والتعب، والخزي، والهوان، لأن الخشوع فيه تذلل وانكسار، والعمل والنصب اللذان توصف بهما وجوه المعذبين من خلق الله يوم الغاشية قد يكون في الدنيا كما قد يكون في الآخرة، ففي الدنيا يتعب غير الموفقين من الخلق في الجري وراء الدنيا وملذاتها وشهواتها، ناسين أو متناسين الآخرة فتشقيهم وتشقى بهم ... وذلك في الدنيا قبل الآخرة، ثم تشقيهم أكثر في الآخرة حين يواجهون بعذاب الله فيقفون فيه موقف الخاسر الذليل – الذي خسر الدنيا والآخرة، وعذاب النار فيه من مشاق العمل ما فيه من حمل الأغلال. وجر السلاسل، والاكتواء بالنار الحامية، والخوض في ظلماتها، وما يصاحب ذلك كله من عمل ونصب، والشرب من عين شديدة الحرارة بلغت أناها أي غاية حرها، والأكل من الضريع الذي ليس لها في النار غيره، وهو من نبت جهنم، وهو من الغيوب المطلقة التي لا يعلمها إلا الله – تعالى– وان قربوها في التشبيه بنوع من الشوك اللاطئ بالأرض ترعاه الإبل وهو أخضر غض، ويسمى – الشبرق – فإذا تم جمعه ويبسه صار اسمه – الضريع – وهو مادة سامة كاملة، وذلك تقريباً للمعني في أذهان أهل الدنيا لأن الآخرة لها من السنن والقوانين ما يغاير سنن الدنيا مغايرة كاملة .

وفي مقابلة هذا الذل والهوان والعذاب والشقاء لأهل النار تعرض الآيات لشيء من جزاء أهل الإيمان والصلاح، فتصور الآيات النعيم الحسي في الجنة لأهلها، فتصفها بأن فيها من العيون والينابيع المتدفقة الجارية، وفيها من السرر المرفوعة ما يوحي بالطهارة ورفعه القدر عند الله، ومن الأكواب الموضوعة بين أيديهم لما لهم من مكانة حينئذ وفيها الوسائد والحشايا التي تصف بعضها إلى جانب بعض للاتكاء والارتياح عليها، والزرابي المبثوثة وهي الطنافس السميكة الفاخرة أو السجاجيد والبسط ذات الهدب الرقيقة التي تبقي فوق النسيج للمزيد من راحة الجالس عليها، وهي مبسوطة أو مفرقة في المجالس للراحة والزينة .

وهذه الأوصاف ليست كل ما في الجنة ، وإنما هي من قبيل تقريب ما في الجنة إلى أذهان الأرض، والأصل أنها كما أخبر عنها الله – سبحانه – في الحديث عن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : (قال الله – تعالى – : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر) [1] .

(١) الحديث أخرجه الإمام البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) في صحيحه : كتاب بدء الخلق ، باب : ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ، برقم ٣٢٤٤ وفي كتاب التفسير ، باب : ﴿ فلا تعلمُ نفسٌ مَا أُخفِيَ لَهُمْ مِنْ قرَّة أعْيُن ﴾ برقمي ٤٧٧٩ ، ٤٧٨٠ ط: دار المعرفة/ بيروت ، وأخرجه الإمام مُسلم (مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ) في صحيحه ، كتاب : الجنة وصفة نعيمها وأهلها برقم ٢٨٢٤ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتب العلمية- بيروت ، وأخرجه الترمذي في التفسير، باب : ومن سورة السجدة، برقم٣١٩٧، وقال : هذا حديث حسن صحيح .

فتقول الآيات : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ أي متنعمة ذات بهجة وحسن ونعمة وكرامة، أو متنعمة لسعيها راضية رضيت بعملها لما رأت ثوابه في جنة عالية عالية المحل أو القدر .

﴿ لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴾ أي لسعيها في الدنيا راضية في الآخرة حيث أعطيت درجات الجنة بعملها .

﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ قيل هو من العلو الذي هو الشرف، وقيل من العلو في المكان وذلك لأن الجنة درجات بعضها أعلى من بعض كل درجة كما بين السماء والأرض .

﴿ لا تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً ﴾ أي ليس فيها لغو ولا باطل، أو كلمة ذات لغو أو نفساً تلغو فإن كلام أهل الجنة الذكر والحكم ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ يجري ماؤها ولا ينقطع والتنكير للتعظيم ﴿ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴾ على وجه الأرض في غير أخدود وقيل تجري حيث أرادوا من منازلهم وقصورهم .

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ﴾ رفيعة السمك أو القدر قال ابن عباس: ألواحها من ذهب مكللة بالزبرجد والياقوت، مرتفعة ما لم يجئ أهلها فإذا أراد أهلها الجلوس عليها ، تواضعت لهم حتى يجلسوا عليها ، ثم ترفع إلى مواضعها.

﴿ وَأَكْوَابٌ ﴾ جمع كوب وهي آنية لا عروة لها يعني الكيزان التي لا عرا لها ﴿ مَوْضُوعَةٌ ﴾ يعني عندهم بين أيديهم ، وقيل موضوعة على حافات العين الجارية كلما أرادوا الشرب منها وجدوها مملوءة .

﴿ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴾ يعني وسائد ومرافق مصفوفة بعضها جانب بعض، أينما أراد أن يجلس ولي الله جلس على واحدة واستند إلى الأخرى .

﴿ وَزَرَابِيُّ ﴾ يعني البسط العريضة . أو بسط فاخرة جمع زربية قال ابن عباس هي الطـــنافس التي لها خمل واحدتها زربية ﴿ مَبْثُوثَةٌ ﴾ أي مبسوطة، وقيل متفرقة في المجالس .

وفي هذه الآيات التسع تصف سورة الغاشية جانباً من نعيم أهل الجنة فتصف وجوههم بأنها ناعمة ذات حسن وبهجة وراضية ذات رضى عن النعيم الذي أكرمهم الله به في الجنة، ويلاحظ أن هذه الآيات تقدم السعادة الروحية من رضا روحي ونفسي على نعيم الجنة الماوى في الآخرة، من قبيل تقريب هذا النعيم إلى تصورات أهل الأرض، وفي الجنة التنزه عن كل لغو مما لا فائدة منه ولا خير من الأقوال والأفعال، وما امتلأت به هذه الدنيا من صور اللغو الباطل والصراع والخصام ، وذلك من الدعوة لأهل الله في الأرض أن يتشبهوا فيها بأهل الجنة فينأون بأنفسهم عن كل ما لا خير فيه من الأقوال والأفعال حتى يتميزوا على أهل الباطل بمختلف أشكاله وألوانه .

ثم تنتقل الآيات إلى الاستشهاد بعدد من آيات الله الكونية للتأكيد على حتمية الآخرة وما فيها من البعث والرجوع إلى الله – سبحانه – والعرض عليه للحساب والجزاء ، ثم الخلود في الجنة أو النار ، فتقول الآيات :

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ قال أهل التفسير : لما نعت الله ﷻ ما في هذه السورة مما في الجنة عجب من ذلك أهل الكفر وكذبوه فذكرهم الله صنعه فقال : ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ وإنما بدأ بالإبل لأنها من أنفس أموال العرب ، ولهم فيها منافع كثيرة ، والمعنى : أن الذي صنع لهم هذا في الدنيا هو الذي صنع لأهل الجنة ما صنع، وتكلم علماء التفسير في وجه تخصيص الإبل بالذكر من بين سائر الحيوانات، فقال مقاتل : لأن العرب لم يروا بهيمة قط أعظم منها، ولم يشاهد الفيل إلا النادر منهم، وقال الكلبي : لأنها تنهض بحملها وقد كانت باركة، وقال قتادة : لما ذكر الله – تعالى – ارتفاع سرر الجنة وفرشها قالوا كيف نصعدها؟ فأنزل الله – تعالى – هذه الآية ... وقيل خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات وأكثرها صنعاً ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع ، وقيل المراد بها السحاب على الاستعارة، ﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ ﴾ نظر اعتبار ﴿ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره، حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية، فجعلها عظيمة باركة للمحل ناهضة بالحمل منقادة لمن اقتادها، طوال الأعناق لينوء بالأوقار ، ترعى كل نابت وتحتمل العطش إلى عشر فصاعداً، ليتأتى لها قطع البوادي والمفاوز مع ما لها من منافع أخرى .

ومنها أنها فضلت على سائر الحيوانات بأشياء، وذلك أن جميع الحيوانات إنما تقتني إما للزينة أو للركوب أو للحمل أو للبن

أو لأجل اللحم، ولا توجد جميع هذه الخصال إلا في الإبل، فإنها زينة وتركب فيقطع عليها المفازات البعيدة، وتحمل الثقيل وتحلب الكثير، ويأكل من لحمها الجم الغفير، وتصبر على العطش عدة أيام، ومنها، أنه يحمل عليها وهي باركة ثم تنهض بحملها ، بخلاف سائر الحيوانات، ومنها ، أنها ترعى في كل نبات في البراري مما لا يرعاه من الحيوانات، فهي سفن، وكان شريح يقول أخرجوا بنا إلى الكناسة؛ حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ بلا عمد، فإن في رفع السماء بغير عمد مرئية – أو بعمد غير مرئية – قد شغل بال الناس منذ القدم، خاصة أهل الصحاري الذين تساءلوا دوماً عن رفعها، وعن ضرورة أن يكون لها رافع مبدع له من العلم والحكمة والقدرة ما مكنه من تحقيق ذلك، وأن الذي رفعها قادر على هدمها وعلى إعادة بنائها من جديد .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ فهي راسخة لا تميل، وللجبال في شموخها وارتفاعها، وانتصابها فوق سطح الأرض ما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة؛ لأن جذورها تطفو في نطاق الضعف الأرضي الموجود تحت الغلاف الصخري للأرض مباشرة، وتحكمها في ذلك قوانين الطفو، فكلما أخذت عوامل التعرية من قممها ارتفعت جذور الجبال إلى أعلى، حتى تخرج من نطاق الضعف الأرضي بالكامل، فيتوقف الجبل عن الحركة حتى تبريه عوامل التعرية بالكامل وتسوية بسطح الأرض، وفي هذه العملية

من الضوابط المحكمة ما يشهد لله الخالق بطلاقة القدرة، وبديع الصنعة، وإحكام الخلق.

﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً، وقرئ الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم وحذف الراجع المنصوب، والمعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات؛ ليتحققوا كمال قدرة الخالق سبحانه وتعالى فلا ينكروا اقتداره على البعث، وفي هذه الآيات الأربع من الأدلة المادية الملموسة ما ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، ويشهد للإله الخالق – سبحانه – بالإلوهية والربوبية والوحدانية المطلقة، كما يشهد له – سبحانه – بالقدرة المطلقة على إقناء خلقه وعلى إعادة بعثه الذي كان محل شك لدى الكفار والمشركين في إمكانية وقوعه.

وانطلاقاً من هذا الإنكار والتشكك أورد الله – سبحانه – العديد من الآيات الكونية الملموسة في القرآن الكريم، ومنها هذه الآيات الأربع، والتي كانت بينة واضحة لكل إنسان في البيئة الصحراوية العربية، وهي وإن كان القرآن قد لفت الأنظار إليها حينما نزل منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة، إلا أنه لازال فيها من الإبداع والإتقان والإعجاز وطلاقة القدرة الإلهية، بل وستظل إلى أن تقوم الساعة، على مر أزمنة التقدم العلمي والتقني التي تمر عليها، لكن هل يحسن أهل هذا التقدم توظيف هذه الآيات في دراسة خلق الله ويستفيدون منها، حتى يدركوا التعقيب من الله بعد هذه الآيات بأمر المعاد، وترتيب الأمر عليه بالتذكير في قوله :﴿ فَذَكِّرْ

إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ فعظهم يا محمد بآيات القرآن ، وذكرهم بالدعوة إلى الإله الواحد القهار، فالإنسان بفطرته ميسر للإذعان بقدرة الله وبديع صنعته ، وإنما قد تتحكم الغفلات ، فتحتاج النفوس إلى مذكر يردها إلى الحق والصواب، فلا عليك إن لم ينظروا ولم يذكروا، أي إنما بعثت لتذكير النفوس فحسب، وليس عليك هداهم، إن عليك إلا البلاغ، وتبليغ الدعوة وترك الناس أحراراً في اعتقادهم ، فلا إكراه في الدين، ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ والمسيطر المتسلط، فأنت لا تجبرهم على الإيمان . ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾[1] ... ﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ فمن تولى عن الحق ، وكفر بآيات الله، وأنكر الدعوة، فإن حسابه إلى الله المطلع على القلوب، وصاحب السلطان على السرائر، وسوف يعذبه الله العذاب الأكبر في الآخرة، وقد يضم إلى عذاب الآخرة عذاب الدنيا.

﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ يعني عذاب الآخرة، وقيل متصل فإن جهاد الكفار وقتلهم تسلط، وكأنه أو عدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة.

﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ وتختم السورة بهذا الإيقاع المناسب لتؤكد دور الرسول في البلاغ، أما الجزاء والحساب فسيكون في يوم الدين، يوم يقوم الناس لرب العالمين، إن إلينا إيابهم ورجوعهم، ثم إن علينا وحدنا حسابهم وجزاءهم[2] .

---

(١) سورة ق آية ٤٥.

(٢) تفسير البيضاوي (للإمام البيضاوي ت ٧٩١هـ) ٥/٤٨٣-٤٨٥، ط: دار الفكر. بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦م. تحقيق: عبد القادر عرفات العشا

فالإبل كانت – ولا تزال – من الحيوانات الأساسية في البيئة الصحراوية لأن الله – تعالي – قد زودها بقدر من الصفات البدنية والتشريحية والوظائف التي تميزها عن غيرها من الحيوانات الثديية المشيمية – بصفة عامة – وعن كل من الأبقار والغزلان والزرافات التي يضعها علماء تصنيف الحيوان مع الجمال في مجموعة واحدة تعرف باسم مجموعة الحيوانات الثديية المشيمية المجترة – بصفة خاصة – أو ما يسمى باسم ذوات الحافر مزدوج الأصابع .

ثم تأتي الإشارة إلى كيفية تسطيح الأرض، وتسخير الله – تعالي– مختلف عوامل التعرية من المياه الجارية، والرياح السافية، والجاذبية الأرضية الحاكمة ما ساعد على شق الفجاج والسبل، وتسوية القمم السامقة إلى السهول المنبسطة، وتشكيل التلال والهضاب ، وتكوين التربة، وخزن المياه في صخور الأرض،

حسونة، ومعالم التنزيل للبغوي (الإمام محيي السنة أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت ٥١٦هـ) ٤/٤٧٨و٤٧٩ ط/ دار المعرفة – بيروت ط/ ٢٠٠٢/٥م تحقيق خالد العك، ومروان سوار، والتبيان في تفسير غريب القرآن ٤٥٩/١ لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ٨٥٣-٨١٥هـ ط: دار الصحابة للتراث بطنطا. مصر، ط : أولى ١٩٩٢م. تحقيق : د/ فتحي أنور الدابولي ، وأهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن ج ٤ ص ١٤٨و ١٤٩. د. عبد الله شحاته ، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ص ٢٠٠٢ م ، ومجمع التفاسير ، وانظر : مقال : من أسرار القرآن " الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزي دلالتها العلمية(١١٨)" بقلم د. زغلول النجار عوض ، موجز لسورة الغاشية جريدة الأهرام القاهرية – العدد ٤٢٧٩١ ، السنة ١٢٧ بتاريخ ١١ الاثنين من ذي الحجة ١٤٢٤ هـ ٢ فبراير ٢٠٠٤م باب : قضايا وآراء .

وتركيز الخامات، وتدفق الأنهار، وغيرها من العمليات اللازمة لجعل الأرض صالحة للعمران بكل من النبات والحيوان والإنسان، وكل ذلك يشهد لله – سبحانه – بطلاقة القدرة .

مقاصد السورة :

هذه السورة سميت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير، وهي سورة مكية بالاتفاق، نزلت بعد سورة الذاريات وقبل سورة الكهف، وآياتها ست وعشرون آية، وقد تناولت موضوعين أساسين:

الأول : القيامة وأهوالها وما يلقاه المؤمن من النعيم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ والجزاء مقابل ما يلقاه الكافر من العذاب والبلاء ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ .

والثاني : عرض بعض الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالي وقدرته في الكون والخلق البديع ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ .

وبعد عرض دلائل القدرة والتوحيد يأمر الله تعالي رسول ﷺ بتذكير المكذبين ووعظهم لأنه لا يمكنه أن يجبرهم على الإيمان ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ فهؤلاء عقابهم عند الله الذي يحاسبهم جزاء كفرهم وتكذيبهم ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾.

وإذا حاولنا أن نفصل أكثر فيما تناولته السورة من موضوعات فإننا نجدها ترتكز على أربعة مواضيع ضخمة :

الموضوع الأول : عن أهوال يوم القيامة، وما فيه من عقاب قوم أعرضوا عن ربهم، مبينة حالهم ، ومشوهة حالتهم ، ومبينة واقعهم في النار – نعوذ بالله منها – .

الموضوع الثاني : عن طائفة مقابلة وهم أهل الإيمان – نسأل الله أن نكون منهم ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ بين الله حالهم وما لهم من النعيم، وما أعد لهم في جنات عدن؛ بسبب صلاحهم وإيمانهم وتقواهم .

الموضوع الثالث : اشتملت السورة على الركن الثاني : وهو النظر في آيات الله الكونية ، والاستدلال بمخلوقات الله – تعالي – التي نصبها الله أمام أعين الناس يشاهدونها ليل نهار ، بل إنها تلتصق بحياتهم فلا يستغنون عنها طرفة عين، سواء في الإبل أو في السموات أو الجبال أو الأرض، فمن كان ذا لب ممتلئ بالإيمان والصلاح والتقوى فإنه يستجيب لتلك الآيات ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ [1] ومن كان في غفلة وإعراض عن ربه فلا يدري مهما جاءته من آية، ومهما مرت عليه ، فما تفيده تلك الآيات ﴿ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ، ونعوذ بالله أن نكون من القوم الغافلين .

---

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠.
(٢) سورة يونس آية ١٠١.

الموضوع الرابع : ختمت بالركن الثالث : وهو تثبيت للنبي ﷺ في دعوته إلى الإسلام، وألا يعبأ بإعراض الكافرين، وما عليه إلا الدعوة والبيان والتذكير : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ .

ويلخص الشيخ المراغي والدكتور عبد الله شحاته مقاصد سورة الغاشية في ثلاثة وهي :

١ – وصف أهل النار وأهل الجنة .

٢ – وصف مشاهد الكون وبدائع الصنعة الإلهية .

٣ – تحديد مهمة الرسول ﷺ بالبلاغ والدعوة إلى الهداية(١).

صلة الآيات الكونية بحديث الغاشية :

وربما يتبادر إلى ذهن البعض سؤال وهو يقرأ هذه السورة ألا وهو : ما وجه الارتباط بين الآيات الكونية والحديث عن يوم القيامة؟ وبعبارة أخرى ما صلة الآيات الكونية بحديث الغاشية وما فيها ؟

ونجد الإجابة عن هذا السؤال لدى بعض المفسرين ممن اهتموا بذكر أوجه الارتباط والمناسبات، فيقول صاحب البحر المحيط : لما ذكر تعالى أمر القيامة وانقسام أهلها إلى أشقياء وسعداء ، وعلم أنه لا سبيل إلى إثبات ذلك إلا بواسطة الصانع

(١) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن ج ٤ ص ١٤٨، ١٤٩ . د.عبدالله شحاته ، ط : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠٠٢ م ، تفسير المراغي للأستاذ الشيخ أحمد مصطفي المراغي ج ٢٨ ص ١٣٦ و ١٣٧ ، ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

الحكيم ؛ اتبع ذلك بذكر هذه الدلائل وذكر ما العرب مشاهدوه وملابسوه دائماً فقال : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ... ولما حضهم على النظر أمر رسوله ﷺ بتذكيرهم فقال : ﴿ فَذَكِّرْ ﴾ ولا يهمنك كونهم لا ينظرون ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ كقوله إن عليك إلا البلاغ ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ أي بمسلط ..

وناسب التنبيه بالنظر إليها – أي الجنة – وإلى ما حوت من عجائب الصفات ، ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض ؛ لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم وبواديهم، وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع، وأنه ليس مختصاً بنوع دون نوع، بل هو عام في كل موجود[1] .

ويقول السمعاني : قوله تعالى ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ ﴾ فإن قيل : كيف يليق هذا بالأول ؟ والجواب : أن النبي ﷺ لما ذكر لهم ما أعده الله للكفار ، ووعده للمؤمنين ، استبعدوا ذلك غاية الاستبعاد. وقالوا : لا نفهم حياة بعد الموت ، ولا ندري وعدا ولا وعيداً ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وذكر لهم من الدلائل ما هي مجرى أبصارهم . قال أبو سليمان الخطابي ﷺ ذكر الله تعالي هذه الأربع وهي الإبل والسماء والأرض والجبال ، وخصها بالذكر من بين سائر الأشياء ؛ لأن الأعرابي إذا ركب بعيره ، وخرج إلى البرية ، فلا يري إلا بعيره الذي هو راكبه ، والسماء التي فوقه ، والأرض

(١) تفسير البحر المحيط ج ٨ ص ٤٦١ ، ٤٦٣ لمحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ٦٥٤ – ٧٥٤ هـ . ط: دار الفكر للطباعة، ط ثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

التي تحته ، والجبال التي هي نصب عينه . وقوله : ﴿ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ في الإبل من أعجوبة الخلق ما ليس لغيرها؛ لأنها مع كبرها وعظمها تنقاد لكل واحد يقود، وأيضاً فإنها تبرك ويحمل عليه الحمل الثقيل ، وتقوم من بروكها ، ولا يوجد هذا في غيره ، والطفل يقوده فينقاد ، وينخه فيستنخ[١] .

ويرجع الشيخ المراغي ذكر الآيات بأنها إقامة للحجة على الجاحدين المنكرين للعذاب أو للنعيم فيقول : بعد أن ذكر – سبحانه – مجيء يوم القيامة، وبين أن الناس حينئذ صنفان أشقياء وسعداء، وأن الأشقياء يكونون في غاية الذل والهوان ، وأن السعداء يكونون يومئذ مستبشرين بادية على وجوههم علامات المسرة – أعقب هذا بإقامة الحجة على الجاحدين المنكرين لذلك وتوجيه أنظارهم إلى آثار قدرته فيما بين أيديهم ، وما يقع تحت أبصارهم من سماء تظل وأرض تقل، وإبل ينتفعون بها في حلهم وترحالهم ، ويأكلون من لحومها وألبانها ويلبسون من أوبارها ، وجبال تهديهم في تلك الفيافي والقفار ...

أخرج عبد بن حميد في آخرين عن قتادة قال : لما نعت الله تعالى ما في الجنة تعجب من ذلك أهل الضلالة فأنزل الله تعالى هذه الآيات ...

---

(١) تفسير القرآن مج ٦ ص ٢١٤ ، للإمام العلامة أبي المظفر السمعاني (منصور بن محمد بن عبد الغفار التميمي المروزي الشافعي ٤٢٦ – ٤٨٩ هـ) ، ط : دار الوطن بالرياض ، تحقيق : أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم .

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ أي أينكر هؤلاء المشركون ما ذكرنا من أمر وما يتصل به من سعادة وشقاء ، ويستبعدون وقوعه، ولا يتدبرون في الإبل التي هي نصب أعينهم ، ويستعملونها في كل حين؟ ولو أنهم تدبروا في خلقها لرأوا خلقاً بديعاً لا يشاكل كل خلق أكثر الحيوان ، فلها من عظم الجثة ، وشدة القوة ، وعظيم الصبر على الجوع والعطش ما لا يشاركها فيه حيوان آخر – إلى أنها تحتمل المشاق ، وتنهض بالأثقال، وتقطع شاسع المسافات ، حتى لقبوها : سفينة الصحراء ..

وقصارى ما سلف – إنه لو نظر هؤلاء الجاحدون المعاندون فيما تقع عليه أنظارهم من هذه الأشياء وفكروا فيها لعلموا أنها صنعة لا توجد إلا بموجد عظيم ، ولا تحفظ إلا بحافظ قدير ، ولأدركوا أن القادر على خلق هذه المخلوقات وسواها وحفظها ووضعها على قواعد الحكمة – قادر على أن يرجع الناس في يوم يوفى فيه كل عامل جزاء عمله وأن ينشئ الآخرة من غير أن يعرفوا طريق إنشائها ، فلا ينبغي أن يكون جهلهم بكيفية يوم القيامة سبباً في جحده وإنكاره ..

وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر، لأن الناظر منهم يفكر في أقرب الأشياء إليه، فهو يرى بعيره الذي يمتطيه، ثم إذا هو رفع رأسه فوق السماء، ثم إذا التفت يمنة أو يسرة رأى ما حوله من الجبال؛ فإذا مد ناظريه أمامه أو تحته رأى الأرض، فالعربي يرى

الأرض، فالعربي يرى ذلك كل يوم، ومن ثم أمره الله بالتدبر فيها[١].

ويأخذنا صاحب الظلال إلى ظلال هذه المناسبة فيقول :

وتنتهي هذه الجولة في العالم الآخر ، فيؤوب منها إلى هذا الوجود الظاهر. الحاضر . الموحي بقدرة القادر وتدبير المدبر، وتميز الصنعة ، وتفرد الطابع . الدال على أن وراء التدبير والتقدير أمراً بعد هذه الحياة، وشأناً غير شأن الأرض . وخاتمة الموت : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

وتجمع هذه الآيات الأربعة القصار، أطراف بيئة العربي المخاطب بهذا القرآن أول مرة . كما تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون كله. حين تتضمن السماء والأرض والجبال والجمال (ممثلة لسائر الحيوان) على مزية خاصة بالإبل في خلقها بصفة عامة وفي قيمتها للعربي بصفة خاصة .

إن هذه المشاهد معروضة لنظر الإنسان حيثما كان .. السماء والأرض والجبال والحيوان .. وأيا كان حظ الإنسان من العلم والحضارة فهذه المشاهد داخلة في عالمه وإدراكه . موحية له بما وراءها حين يوجه نظره وقلبه إلى دلالتها .

---

(١) تفسير المراغي للأستاذ الشيخ أحمد مصطفى المراغي ج ٢٨ ص ١٣٦ - ١٣٧ ، ط: مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

والمعجزة كامنة في كل منها ، وصنعة الخالق معلمة لا نظير لها ، وهي وحدها كافية لأن توحي بحقيقة العقيدة الأولى . ومن ثم يوجه القرآن الناس كافة إليها[١] ..

وبالنظر في أقوال المفسرين هذه نجد أنها ترد المناسبة إلى أن هذه الآيات دلائل تثبت للعرب أن من خلق هذه الكائنات التي أمامكم وتنتفعون بها وتتقلبون فيها قادر على أن يجعل العذاب للكافر والنعيم للمؤمن يوم القيامة، وأن من خلق هذه الكائنات وأودع فيها كل هذه الصفات لهو قادر على إعداد الجنة وتزويدها بكثير من صفات النعيم الذي تتخيلونه والذي لا تتخيلونه ، أو أنها ترد المناسبة إلى أن هذه الآيات إقامة للحجة على الجاحدين المنكرين للعذاب أو النعيم في الآخرة ، وهو نفس الرابط .

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٨٦٨ للشيخ سيد قطب ، ط: دار الشروق. بيروت ، ط ١٩٧٢م .

المبحث الثالث

الآيات الكونية في سورة الغاشية

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾

ذكر الإبل في القرآن الكريم :

عندما اختار الله سبحانه وتعالى الإبل ليتدبرها البشر ، فلابد أن يكون فيها من الأسرار الكثير مما يدل على عظمة الخالق – سبحانه – ومن الآيات التي وردت عن الإبل في القرآن الكريم ما يلي:

١ – ﴿ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴾[١] .

٢ – ﴿ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴾[٢] .

٣ – ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣] .

٤ – ﴿ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾[٤] .

٥ – ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾[٥] .

---

(١) سورة الشعراء آية ١٥٥.
(٢) سورة القمر آية ٢٧.
(٣) سورة الأعراف آية ٧٣.
(٤) سورة هود آية ٦٤.
(٥) سورة يوسف آية ٦٥.

٦ – ﴿ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴾[١] .

٧ – ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفاً ﴾[٢] .

٨ – ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٣] .

٩ – ﴿ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴾[٤] .

١٠ – ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾[٥] .

١١ – ﴿ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾[٦] .

والذي يعنينا في بحثنا – حتى لا يطول بنا الحديث – أن نتعرف على آية سورة الغاشية عند أهل التفسير ، ثم نتطرق إلى بعض ما قاله أهل العلم في العصر الحديث .

أقوال المفسرين في الآية :

قال شيخ المفسرين : يقول تعالى ذكره لمنكري قدرته على ما وصف في هذه السورة من العقاب والنكال الذي أعده لأهل عداوته،

---

(١) سورة يوسف آية ٧٢.
(٢) سورة الإسراء آية ٥٩.
(٣) سورة الحج آية ٣٦.
(٤) سورة التكوير آية ٤.
(٥) سورة الغاشية آية ١٧.
(٦) سورة الشمس آية ١٣.

والنعيم والكرامة التي أعدها لأهل ولايته : أفلا ينظر هؤلاء المنكرون قدرة الله على هذه الأمور ﴿ إِلَى الإِبِلِ ﴾ كيف خلقها وسخرها لهم ، وذللها وجعلها تحمل حملها باركة ، ثم تنهض به ، والذي خلق ذلك غير عزيز عليه أن يخلق ما وصف من هذه الأمور في الجنة والنار ، يقول – جل ثناؤه – ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ ﴾ فيعتبرون بها ويعلمون أن لقدرة التي قدر بها على خلقها لن يعجزه خلق ما شابهها[١].

وقال الإمام ابن كثير : يقول تعالى آمراً عباده بالنظر إلى مخلوقاته الدالة على قدرته وعظمته ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ فإنها خلق عجيب وتركيبها غريب، فإنها في غاية القوة والشدة ، وهي مع ذلك تميل للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف، وتؤكل وينتفع بوبرها ويشرب لبنها، ونبهوا بذلك لأن العرب غالب دوابهم كانت الإبل، وكان شريح القاضي يقول : أخرجوا بنا حتي ننظر إلى الإبل كيف خلقت[٢] .

وقال البيضاوي : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ ﴾ نظر اعتبار ﴿ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسن تدبيره ، حيث خلقها لجر الأثقال إلى البلاد النائية ، فجعلها عظيمة باركة للمحل ناهضة بالحمل، منقادة لمن اقتادها طوال الأعناق ، لينوء بالأوقار،

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن ١٦٥/٣٠ للطبري (أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ٢٢٤-٣١٠هـ) ط/ دار الفكر، بيروت ط ١٤٠٥هـ.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٠٤/٤ لابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ت ٧٧٤هـ) ط: دار الفكر . بيروت ١٤٠١هـ .

ترعى كل نابت، وتحتمل العطش إلى عشر فصاعدا ، ليتأتى لها قطع البوادي والمفاوز ، مع ما لها من منافع أخرى ، ولذلك خصت بالذكر لبيان الآيات المنبثة في الحيوانات التي هي أشرف المركبات، وأكثرها صنعاً، ولأنها أعجب ما عند العرب من هذا النوع[1] ..

وقال صاحب التحرير والتنوير : لما تقدم التذكير بيوم القيامة، ووصف حال أهل الشقاء بما وصفوا به ، وكان قد تقرر فيما نزل من القرآن أن أهل الشقاء هم أهل الإشراك بالله ، فرع على ذلك إنكاراً عليهم إعراضهم عن النظر في دلائل الوحدانية ، فالفاء في قوله : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ ﴾ تفريع التعليل على المعلل؛ لأن فظاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام استدلال على أنهم محقوقون بوجوب النظر في دلائل الوحدانية التي هي أصل الاهتداء إلى تصديق ما أخبرهم به القرآن من البعث والجزاء ، وإلى الاهتداء إلى أن منشئ النشأة الأولى عن عدم، بما فيها من عظيم الموجودات كالجبال والسماء، لا يستبعد في جانب قدرته أعادة إنشاء الإنسان بعد فنائه عن عدم، وهو دون تلك الموجودات العظيمة الأحجام، فكان إعراضهم عن النظر مجلبة لما يجشمهم من الشقاوة، وما وقع بين هذا التفريع وبين المفرع عنه من جملة : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴾ كان في موقع الاعتراض . فضمير ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ عائد إلى معلوم من سياق الكلام .

---

(١) تفسير البيضاوي ٥/٤٨٤ .

والهمزة للاستفهام الإنكاري، إنكاراً عليهم إهمال النظر في الحال إلى دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته .

والنظر : نظر العين المفيد الاعتبار بدقائق المنظور، وتعديته بحرف "إلى" تنبيه على إمعان النظر؛ ليشعر الناظر بما في المنظور من الدقائق، فإن قولهم نظر إلى كذا أشد في توجيه النظر من نظر كذا، لما في "إلى" من معنى الانتهاء، حتى كأن النظر انتهى عند المجرور بـ "إلى" انتهاء تمكن واستقرار .

ولزيادة التنبيه على إنكار هذا الإهمال قيد فعل ﴿ يَنْظُرُونَ ﴾ بالكيفيات المعدودة في قوله : ﴿ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ و ﴿ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ و ﴿ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ و ﴿ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي لم ينظروا إلى دقائق هيئات خلقها .

وقد عدت أشياء أربعة هي من الناظرين عن كثب لا تغيب عن أنظارهم، وعطف بعضها على بعض، فكان اشتراكها في مرآهم جهة جامعة بينها بالنسبة إليهم ، فإنهم المقصودون بهذا الإنكار والتوبيخ ، فالذي حسن اقتران الإبل مع السماء والجبال والأرض في الذكر هنا، هو أنها تنتظم في نظر جمهور العرب من أهل تهامة والحجاز ونجد وأمثالها من بلاد أهل الوبر والانتجاع .

فالإبل أموالهم ورواحلهم ، ومنها عيشهم ولباسهم ونسج بيوتهم وهي حمالة أثقالهم ، وقد خلقها الله خلقاً عجيباً بقوة قوائمها ويسر بروكها لتيسير حمل الأمتعة عليها ، وجعل أعناقها طويلة قوية ليمكنها النهوض بما عليها من الأثقال بعد تحميلها ، أو بعد

استراحتها في المنازل والمبارك، وجعل في بطونها أمعاء تخزن الطعام والماء بحيث تصبر على العطش إلى عشرة أيام في السير في المفاوز مما يهلك فيما دونه غيرها من الحيوان، ونقل بهم إلى التدبر في عظيم خلق السماء إذ هم ينظرونها نهارهم وليلهم في إقامتهم وظعنهم ، يرقبون أنواء المطر ويشيمون لمع البروق[١] .

أقوال أهل الإعجاز العلمي في الآية :

جاء عن المهتمين بمجال الإعجاز العلمي كلام كثير عن الإبل، بل وأقيمت أبحاث ودراسات عن هذا الحيوان العجيب، ولا أبالغ إذا قلت إنه أقيمت مؤتمرات بأكملها عن الإبل[٢]، قدمت فيها عشرات الأبحاث من نواح مختلفة عن هذا الحيوان الذي أدهش وما يزال يدهش العقول، وقد اخترت أن أنقل عنهم هنا بعض خصائص الشكل والبنيان الخارجي التي تلفت الأنظار لأول وهلة .

أذنا الإبل :

أما الأذنان فصغيرتان قليلتا البروز، فضلاً عن أن الشعر يكتنفها من كل جانب ليقيها الرمال التي تذروها الرياح ، ولهما القدرة عن الانثناء خلفاً والالتصاق بالرأس إذا ما هبت العواصف الرملية .

---

(١) التحرير والتنوير ٤٨٠٧/٢٠ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي ت ١٣٩٣هـ ط: الدار التونسية للنشر .

(٢) أقيم المؤتمر الدولي للإبل ، بالرياض ١٢-٢٠٠٦/٥/١٤م قدم فيه أكثر من مائة وخمسين بحثاً عن الإبل من جوانب عديدة .

منخرا الإبل :

كذلك المنخران يتخذان شكل شقين ضيقين محاطين بالشعر ، وحافتهما لحمية فيستطيع الجمل أن يغلقهما دون ما قد تحمله الرياح إلى رئتيه من دقائق الرمال .

عينا الإبل :

إن لعيني الجمل رموش ذات طابقين مثل الفخ، بحيث تدخل الواحدة بالأخرى ، وبهذا فإنها تستطيع أن تحمي عينها ، وفي هذه الحالات تستطيع أيضاً أن تغلق أنفها لكي لا تتسرب الرمال فيها .

ذيل الإبل :

وذيل الجمل يحمل كذلك على جانبيه شعراً؛ يحمي الأجزاء الخلفية من حبات الرمل التي تثيرها الرياح، والتي تكون أحياناً كوابل من طبقات الرصاص .

قوائم الإبل :

أما قوائم الجمل فهي طويلة لترفع جسمه عن كثير مما يثور تحته من غبار، كما أنها تساعده على اتساع الخطو وخفة الحركة، وتتحصن أقدام الجمل بخف يغلفه جلد قوي غليظ يضم وسادة عريضة لينة تتسع عندما يدوس الجمل بها فوق الأرض، ومن ثم يستطيع السير فوق أكثر الرمل نعومة، وهو ما يصعب على أية دابة سواه ويجعله جديراً بلقب " سفينة الصحراء " .

عنق الإبل :

ومما يناسب ارتفاع قوائم الجمل طول عنقه، حتى أنه يتناول طعامه من نبات الأرض، كما أنه يستطيع قضم أوراق الأشجار المرتفعة حيث يصادفها ، هذا فضلاً عن أن هذا العنق الطويل يزيد الرأس ارتفاعاً عن الأقذاء ويساعد الجمل على النهوض بالأثقال .

وحين يبرك الجمل للراحة أو يناخ ليعد للرحيل يعتمد جسمه الثقيل على وسائد من جلد قوي سميك على مفاصل أرجله ، ويرتكز بمعظم ثقله على كلكله، حتى أنه لو جثم به فوق حيوان أو إنسان طحنه طحناً.

وهذه الوسائد إحدى معجزات الخالق التي أنعم بها على هذا الحيوان العجيب ، حيث إنها تهيئه لأن يبرك فوق الرمل الخشنة الشديدة الحرارة التي كثيراً ما لا يجد الجمل سواها مفترشاً له فلا يبالي بها ولا يصيبه منها أذى . والجمل الوليد يخرج من بطن أمه مزود بهذه الوسائد المغلظة ، فهي شيء ثابت موروث وليست من قبيل ما يظهر بأقدام الناس من الحفاء أو لبس الأحذية الضيقة .

هذه بعض أوجه الإعجاز في خلق الإبل من ناحية الشكل والبنيان الخارجي، وهي خصائص تجعل الناظر منذ الوهلة الأولى يقر ويعترف بالإعجاز الذي يدل على قدرة الخالق سبحانه[1].

---

(١) راجع : بعض الملامح التشريحية والفسيولوجية لإبل وحيدة السنام، (بحث ألقي حديثاً في المؤتمر الدولي للإبل بالرياض في مايو ٢٠٠٦ م) أعداد: أ.د. علي بن عبد الله القرعاوي ، أ.د. صلاح هجرس ، أ.د. نبيل أبو هيكل ، وكتاب رحيق العلم والإيمان ، الدكتور أحمد فؤاد باشا ، ص ١٨٥ ، ط : الحلبي . مصر .

ومن إتمام الفائدة البحثية هنا أن نشير إلى بعض خصائص الإبل الوظيفية ، كما جاء عن علماء الأحياء (البيولوجيا) لإظهار ما فيها من غوامض وأسرار أودعها الحق – سبحانه وتعالى .

ونبدأ بإيضاح ما نعرف عن الإبل من صبر على العطش ، ففي بيئة الإبل التي يقل فيها الزرع والماء لا يكتب العيش إلا لحيوان فطر الله جسمه على حسن تدبير أمور استخدام ما عنده من ماء وغذاء غاية الاقتصاد .

معدة الإبل :

وأما معدة الجمل ذات أربعة أوجه وجهازها الهضمي قوي بحيث تستطيع أن تهضم أي شيء بجانب الغذاء كالمطاط مثلاً في الأماكن الجافة تستفاد من هذه الخاصية .

تنفس الإبل :

من هذه الأساليب أن الجمل لا يتنفس من فمه ولا يلهث أبداً مهما اشتد الحر أو استبد به العطش ، وهو بذلك يتجنب تبخر الماء من هذا السبيل.

تنظيم جسم الإبل للحرارة :

يمتاز الجمل بأنه لا يفرز إلا مقداراً ضئيلاً من العرق عند الضرورة القصوى، بفضل قدرة جسمه على التكيف مع المعيشة في ظروف الصحراء التي تتغير فيها درجة الحرارة بين الليل والنهار.

إن جسم الجمل مغطى بشعر كثيف وهذا الشعر يقوم بعزل الحرارة ويمنعها من الوصل غلى الجلد تحتها ، ويستطيع جهاز ضبط الحرارة في جسم الجمل أن يجعل مدى تفاوت الحرارة نحو سبع درجات كاملة دون ضرر .

إنتاج الإبل (الجمال) للماء :

ويضيف علماء الأحياء ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) سبباً جديداً يفسر قدرة الإبل على تحمل الجوع والعطش عن طريق إنتاج الماء الذي يحتاجه من الشحوم الموجودة في سنامه بطريقة كيماوية يعجز الإنسان عن مضاهاتها. ومن حكمة خلق الله في الإبل أن جعل احتياطي الدهون في الإبل كبيراً للغاية يفوق أي حيوان آخر .

وهناك أسرار أخري عديدة لم يتوصل العلم بعد إلى معرفة حكمتها ولكنها تبين صوراً أخري للإعجاز في خلق الإبل كما دل عليه البيان القرآني .

في هذه الآيات الكريمة يخص الله سبحانه وتعالي – الإبل من بين مخلوقاته الحية، ويجعل النظر إلى كيفية خلقها أسبق من التأمل في كيفية رفع السموات ونصب الجبال وتسطيح الأرض ، ويدعو إلى أن يكون النظر والتأمل في هذه المخلوقات مدخلاً إلى الأيمان الخالص بقدرة الخالق وبديع صنعه .

وقد كشف العلم الحديث عن بعض الحقائق المذهلة في حياة هذا المخلوق الذي خصه الله بالذكر من بين ما لا يحصى من

مخلوقات الله، وامتد الاهتمام مؤخراً إلى الدور المتميز الذي يمكن أن تقوم به الإبل في مشاكل الأمن الغذائي للبشر. ففي عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥ ، حين أصيبت أفريقيا بالجفاف هلكت – أو كادت تهلك – في كينيا القبائل التي كانت تعيش على الأبقار التي كفت عن إفراز اللبن ثم مات معظمها ، بينما نجت القبائل التي كانت تعيش على الإبل، لأن النوق استمرت في الجود بألبانها في موسم الجفاف. ومن هنا أصبح للاهتمام بالإبل أيضاً دوافع اقتصادية ومستقبلية مهمة ودعا أهل الاختصاص إلى التعمق في دراسة هذا الحيوان في عالم تستنفد سريعاً موارده من الغذاء والطاقة[١] .

إذن فالإبل جديرة بالنظر والتفكر لما تحويه من كل هذه العجائب ، فسبحان من خلقها وأودع فيها كل هذه الأسرار ، أما نحن فليس لنا إلا أن نقر ونعترف بقدرة الله – سبحانه – ونشكره على كل هذه النعم شكراً يليق بجلاله وعظمته ، كما أننا علينا أن نكثر التفكر والبحث في مثل هذه الآيات ، ونعطيها من أوقاتنا ، ونطوع ما نتوصل إليه في فكرنا وبحثنا لخدمة ديننا ، حتى ولو كان ضئيلاً ، بأن ينقل المعرفة إلى من حوله مرشداً إياهم إلى الالتفات لقدرة الله وعظمته وتدبيره للأمور، وعظمته في ملكوته ، واستحقاقه تجاه ذلك كله للعبودية والخشية، ولا نستقل من المعروف شيئاً ، فكل حسب طاقته واستطاعته .

ومن أحدث ما تم التوصل إليه في مجال الإعجاز العلمي في آية سورة الغاشية مايلي :

---

(١) السابق ص ١٨٧ .

أجريت تجربة عشوائية لمدة ٥٢ أسبوعاً على ٢٤ مريض بالسكري النوع الأول . قسم المرضي لمجموعتين متساويتين . كان متوسط عمر المجموعة الأولى ٧,٥ ± ١٣ عاماً وتم علاجهم بالطرق التقليدية لعلاج مرضي داء السكري (حقن إنسلين + تحكم في الغذاء + ممارسة التمرين اليومي). أما المجموعة الثانية (وكان متوسط عمرها ٩,٤ + ١٥ عاماً) فتم علاجها بالطرق التقليدية بالإضافة لشرب ٥٥٠ مل من لبن الإبل يومياً لمدة عام. أوضحت النتائج أن المجموعة التي أعطيت حليب الإبل حدث بها تحكم معنوي في تركيز سكر الدم وصاحب ذلك نقص معنوي أيضاً في جرعة الإنسولين (من ١٤,١٦ إلى ٢,٨٤) خاصة في الأسبوع ٥٢ . لم يؤثر اللبن في المسبب المناعي الذاتي للمرض (الأجسام المضادة الذاتية ضد الإنسولين) [١] .

ومن فوائد حليب الإبل :

١ – يعتبر حليب الإبل غذاء جيد عالي القيمة الغذائية بنسب جيدة .

---

(١) راجع البحث الملقي في مؤتمر الرياض السابق ذكره وعنوانه : الإعجاز العلمي في القرآن الكريم في قوله تعالي ﴿ أفلا يَنظرُونَ إلى الإبل كيْف خلقت ﴾ " دراسة علمية للتغيرات التي تحدث للإبل للتغلب على العطش وارتفاع درجات الحرارة وبيان إعجاز الخالق سبحانه وتعالي " إعداد : حامد محمد ، قسم الأمراض الباطنية بكلية الطب البيطري جامعة الزقازيق . (بحث القي حديثا في المؤتمر الدولي للإبل بالرياض في مايو ٢٠٠٦م) .

٢ – يحتوي دهن حليب الإبل على نسبة عالية من الأحماض الدهنية متوسطة وقصيرة السلسلة الكربونية مما يجعله سهل الهضم. ويمتاز على حليب البقر باحتوائه على كمية أكبر من الأحماض الدهنية غير المشبعة، المهمة للأشخاص المصابين بأمراض القلب .

٣ – تختلف بروتينات حليب الإبل عن بروتينات حليب البقر في كمية الكازين والبروتينات التي لها دور فعال ضد الميكروبات (لاكتوفيرين ، لايستزيم ، جلوبيولينات المناعة) . يمثل الكازين ما بين ٧١ إلى ٧٦% من مجموع بروتينات حليب الإبل ، أما في البقر فإنه يمثل ٧٢–٧٨% من جانب آخر يحتوي حليب الإبل على كميات أكبر من البروتينات التي لها دور فعال ضد الميكروبات.

٤ – يحتوي بروتين حليب الإبل على جميع الأحماض الأمينية الضرورية في التغذية ، ويتواجد به سلاسل ببتيدية تشابه في تركيبها هرمون الأنسولين ، لذلك فإنه يعتقد أنه يعمل عملاً يشابه عمل هرمون الأنسيولين . ولذلك ذكرت بعض التقارير أن حليب الإبل مفيد في الوقاية والعلاج من مرض السكري .

٥ – يحتوي حليب الإبل على نسبة جيدة من الفتياميناتِ ، ويتميز باحتوائه على نسبة عالية من فيتامين ج وفيتامين النياسين (جدول رقم ٣) مقارنة بحليب البقر، مما يجعله غذاء جيداً ومناسباً لسكان اللمناطق الحارة والجافة التي يندر بها الخضروات والفواكه الطازجة .

هذا وقد تبين أن اللتر الواحد من حليب الإبل يمد الشخص البالـــغ من احتـــياجاته اليومية بحوالي ٥٠% من فـــيتامين (ب١٢) و٤٠% من فيتامين (ج) و ٣٠% من فيتامين (أ) و٢٤% من فيتامينات النياسين والثيامين الريبوفلافين و (ب٦) [١].

(١) خصائص وفوائد حليب الإبل . أ.د. محمد عبد الفتاح مهيا (بحث ألقي حديثا في المؤتمر الدولي للإبل بالرياض في مايو ٢٠٠٦م) .

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾

ورد لفظ " السماء " في ثلاثمائة وعشرة (٣١٠) موضعاً في القرآن الكريم، ومنها ما ورد بصيغة الإفراد ومنها ما ورد بصيغة الجمع، ورد منها مائة وعشرون (١٢٠) موضعاً بصيغة الإفراد ، ومائة وتسعون (١٩٠) موضعاً بصيغة الجمع (معرفة وغير معرفة)" السموات أو سموات"[١] .

يقول أحد أقطاب الإعجاز[٢] في النظرة العلمية للصيغ التي ورد عليها لفظ " السماء" في القرآن :

وصيغ الجمع تشير في غالبيتها إلى السموات السبع، أي إلى كل ما حول الأرض من المكان والزمان وما فيهما من مختلف صور المادة والطاقة، سواء ما تجمع على هيئة أجرام السماء المتباينة في أبعادها وأحجامها، وكثافة المادة فيها، وكتلها وهيئاتها، وصفاتها الطبيعية والكيمائية، ودرجات نشاطها، أو ما انتشر منها على هيئة دخانية رقيقة بين تلك الأجرام والتي تعرف عادة باسم "المادة بين النجوم والكواكب" .

أما الإشارات القرآنية إلى " السماء " بصيغة الإفراد ، فقد جاءت في ثمانية وثلاثين(٣٨) موضعاً من المائة والعشرين موضعاً التي وردت فيها، بمدلول الغلاف الغازي للأرض بما فيه من رياح

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . مادة (سما) محمد فؤاد عبر الباقي. ط: دار الحديث بالقاهرة ط ثالثة ١٤١١هـ ١٩٩١م.
(٢) الدكتور زغلول النجار .

تصرف، وسحب تتحرك، وكسف تسقط، وأمطار تهطل، ورعد وبرق، وصور مختلفة للطاقة، ونور النهار، وحلكة ظلام الليل وإنارة بنور القمر والنجوم، وأصداء الأصوات، ورجع الماء، والرجع الحراري، ونطق حماية متعددة للحياة الأرضية، وغير ذلك مما خلق الله (تعالى) وأبدع .

وجاءت الإشارة إلى السماء بالإفراد في الاثنتين والثمانين (٨٢) موضعاً آخر من كتاب الله بمدلول السماء الدنيا التي زينها ربنا – تبارك وتعالى – بالنجوم والكواكب؛ ويفهم منها في بعض هذه المواضع كل ما هو حول الأرض وفوقها إلى نهاية الكون[١].

والآيات التي لها صلة ببحثنا من هذه المواضع الآيات التي تشير إلى رفع السماء، ومن هذه الآيات ما يشير إلى رفع السماء بغير عمد يراها الناس، وإبقاءها سقفاً مرفوعاً، وحفظها من الوقوع على الأرض ومن الزوال إلا بإذن الله، ومنها ما يشير إلى رفعها على الإطلاق .

فمن الأول قوله – سبحانه وتعالى – : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[٢] ، وقوله ﷻ ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا

(١) من آيات الإعجاز العلمي (السماء في القرآن الكريم) ص ٥٨٩، ٥٩٠، الأستاذ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار ، ط دار المعرفة ، بيروت– لبنان. ط ثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م .
(٢) سورة الرعد آية ٢ .

وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[١] .

ومن الثاني أي مما له صلة مباشرة ببحثنا قوله تعالي : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾[٢] .

فكيف رفعت السموات بغير عمد يراها الناس ؟ وهل معنى الآيات التي تشير إلى ذلك أن السماء لها عمد غير مرئية أم ليس لها عمد على الإطلاق؟ هذا ما سوف نفصله في السطور التالية بإذن الله تعالى ، وقبل الدخول في ذلك لابد لنا من بيان معنى كلمة (عمد) في اللغة العربية وفي القرآن الكريم .

كلمة (العمد) في اللغة العربية :

(العَمد) و (العُمد) بفتح العين وضمها هي الدعائم ، وهو اسم جمع مفرده (عماد) ؛ (والعماد) هو ما (يعمد) إليه أي يستند إليه؛ و(العمد) على الشيء الاستناد إليه؛ ويقال(عمد) الشيء (فانعمد) أي أقامه(بعماد)(يعتمد) عليه، و(عمدت) الشيء إذا أسندته، و(عمدت) الحائط (أعمده) (عمداً)، و(أعمدته) بمعنى دعمته، (فانعمد) واستند؛ و(العمود) ما تقام أو تعتمد عليه الخيمة من خشب أو نحوه،

(١) سورة لقمان آية ١٠ . وأقرأ : الأنبياء آية ٣٢ ، والحج ٦٥ ، والروم ٢٥ ، وفاطر ٤١ ، والطور ٥ ، والرحمن ٧ ، والنازعات ٢٧ ، ٢٨ ، والشمس ٥ .
(٢) سورة الغاشية الآيتان ١٧ ، ١٨ .

ويعرف باسم (عمود البيت)، وجمعه في القلة (أعمدة)، وفي الكثرة (عمد) بفتحتين و(عمد) بضمتين[١] .

كلمة (العمد) في القرآن الكريم :

وردت كلمة (عمد) ومشتقاتها في القرآن الكريم في سبعة مواضع، منها ثلاثة ألفاظ كريمة بلفظ (عمد) ، ومن هذه الثالثة موضعان لهما صلة بلفظ (السماء) ، وهما في آيتي الرعد ولقمان، والثالث ليس له صلة به، وهو في الآية التاسعة من سورة الهمزة : ﴿ فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ ، والرابع بلفظ (عماد) وهو في الآية السابعة من سورة الفجر: ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾ ، والمواضع الثلاثة الأخيرة بلفظ (تعمد ، ومتعمداً)[٢] .

من أقوال المفسرين في تفسير آيتي الرعد ولقمان :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ، ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ .

قال الإمام ابن كثير – رحمه الله – " السماء على الأرض مثل القبة يعني بلا عمد ، وهذا هو اللائق بالسياق ، والظاهر من قوله تعالي : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ

---

(١) لسان العرب لابن منظور : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٦٣٠ – ٧١١هـ مادة (عمد) ٣٠٢/٣ ط: دار صادر ، بيروت، ط : أولى .

(٢) اقرأ : (الأحزاب : ٥ ، والنساء : ٩٣ ، والمائدة :٩٥)، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي . مادة (عمد) .

بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾[١] فعلى هذا يكون قوله ﴿تَرَوْنَهَا﴾ تأكيداً لنفى ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة " . وفي هامش تفسيره أشار ابن كثير ، إلى أن كلا من ابن عباس ﷺ ومجاهد والحسن قالوا : لها عمد ولكن لا ترى ، فتكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة ﴿ عَمَد ﴾ أي بغير عمد مرئية (أو بعمد غير مرئية) ، وأضاف أن هذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر ولذلك ضعفه ابن كثير[٢] .

قال الإمام البغوي : يعني ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ يعني السواري واحدها عمود مثل أديم وأدم وعمد أيضاً جمعه مثل رسول ورسل ومعناه نفي العمد أصلاً وهو الأصلح يعني ليس من دونها دعامة تدعمها ولا فوقها علاقة تمسكها قال إياس بن معاوية السماء مقببة على الأرض مثل القبة وقيل ترونها راجعة إلى العمد معناه لها عمد ولكن لا ترونها وزعم أن عمدها جبل قاف وهو محيط بالدنيا والسماء عليه[٣].

---

(١) سورة الحج آية ٦٥ .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٥٠٠/٢ ، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ت ٧٧٤هـ ، ط: دار الفكر ، بيروت ١٤٠١ هـ .
(٣) معالم التنزيل للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت ٥١٦ هـ ، ج ٣ ص ٦ تحقيق : خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار ، ط : دار المعرفة ، بيروت ، ط : خامسة ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢ م.

وذكر صاحبا تفسير الجلالين : " أن (العمد) جمع (عماد) وهو الأسطوانة (أي أن العمد موجودة ولكنكم لا ترونها) ، وهو صادق أن لا عمد أصلاً[١].

وقال صاحب الظلال – رحمه الله – : " والسموات " – أيا كان مدلولها ، وأيا كان ما يدركه الناس من لفظها في شتى العصور – معروضة على أنظار هائلة – ولاشك – حين يخلو الناس إلى تأملها لحظة ، وهي هكذا لا تستند إلى شيء ، مرفوعة (بغير عمد) مكشوفة (ترونها) .. ما من أحد يقدر على رفعها بلا عمد – أو حتى بعمد – إلا الله "[٢] .

وذكر الشيخ الصابوني في تفسير قوله تعالي : ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ ما نصه " أي خلقها مرتفعة البناء، قائمة لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها بغير دعائم، وذلك دليل على وجود الخالق المبدع الحكيم "[٣]. ولا يناقض العلم أياً من هذه التفسيرات ، وحسبنا ذلك في الإعجاز .

(١) تفسير الجلالين (عبد الرحمن بن أبى بكر – جلال الدين السيوطي – ، ومحمد بن أحمد – جلال الدين المحلي) ٣٢١/١ ، ط: دار الحديث ، القاهرة ط أولي .
(٢) في ظلال القرآن – الشيخ سيد قطب ج ٤ ص ٢٠٤٥ .
(٣) صفوة التفاسير مج ٢ ص ٧٣ الشيخ محمد على الصابوني ط: دار القرآن الكريم . بيروت ط ثانية ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾

لفظ " الجبال " في اللغة العربية :

الجبل : في لغة العرب هو : الجبل : اسم لكل وتد من أوتاد الأرض إذا عظم وطال من الأعلام والأطواد ، وأما ما صغر وانفرد فهو من القنان والقور والأكم والجمع أجبل وأجبال وجبال ، ويقال (أجبل) المسافر، و(تجبل) و(جابل) أي صار إلى الجبل بمعنى وصل إليه أو دخله وسكن فيه ، ويقال للحية (ابنة الجبل) لأن الجبل مأواها ويعرف (الجبل) – كشكل من أشكال تضاريس الأرض – بأنه كتلة من الأرض ترتفع بشكل واضح بارزة فوق ما يحيطها ، وتكون أعلى من التل[١] .

الجبال في القواميس اللغوية والعملية غير العربية :

يعرف الجبل في معجم المصطلحات الجيولوجية بأنه : تل مرتفع أو قطعة من الأرض ترتفع بشكل كبير على الأراضي المجاورة لها ، وتوجد عادة متصلة في أطواف ، أو في منظومات أو سلاسل جبلية طويلة، ولكنها قد تكون أحياناً على شكل مرتفعات فردية معزولة .

ويطلق مصطلح الجبل عادة على الارتفاع التي تزيد على ٥١٠م أو ٦١٠م ، أما المرتفعات التي تقل عن ذلك، فتسمى تلالا وإن كان ارتفاعها في هذه الحدود كبيراً، فإنها تسمي ربوة[٢] .

---

(١) لسان العرب لابن منظور : مادة (جبل) ٩٦/١١ ، ٩٧ .
(٢) معجم المصطلحات الجيولوجية/ معهد الجيولوجيا الأمريكي ، ط: معادة ١٩٧٦م ، كتب أنشور ، صفحة ٢٨٩ .

وتعرف دائرة المعارف البريطانية الجديدة الجبل بأنه : " منطقة من الأرض أعلى بكثير نسبياً من الأرض المحيطة بها" وتضيف : " وعليه فإن ما يدعى بالتلال المصاحبة لمجموعات السامقة كجبال الهيمالايا تعتبر جبالاً لو وجدت في مكان آخر أقل ارتفاعاً "[١] .

ورود لفظ " الجبال في القرآن الكريم :

وردت كلمة (جبل) بصيغة المفرد والجمع في القرآن الكريم ٣٩ مرة ، منها (٦ مرات بصيغة المفرد و ٣٣ مرة بصيغة الجمع) وعبر عنها بلفظ (رواسي) في عشر آيات أخرى وغير لفظها الحقيقي[٢] .

ويمكن تصنيف هذه الإشارات القرآنية للجبال ، والتي يبلغ عددها ثمان وأربعين إلى مجموعات مميزة على النحو الآتي :

* آيات تبين أن للجبال دور في تثبيت الأرض ، وآية واحدة تصف الجبال بأنها أوتاد ، والآية – محور حديثنا – تصف قيام الجبال منتصبة على سطحها وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[٣]

---

(١) دائرة المعارف البريطانية " الموسوعة البريطانية الجديدة " (في ٣٠ مجلد) ط ١٩٧٥م ، اسم الناشر : هيلين همنغواي بنتون.
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . مادة (جبل) محمد فؤاد عبد الباقي.
(٣) سورة النحل آية ١٥ .

وقال أيضاً ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[١] وقال ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾[٢] .

وقد وردت آيات أخرى للجبال منها آية تصف بعض النواحي العلمية للجبال ، من مثل وجود جدد مختلفة الألوان فيها ، وهى قوله تعالي : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾[٣].

* آيات تصور ضخامة الجبال وارتفاعها وطبيعتها الصلبة الهائلة ، وذلك مثل قوله – تعالى – : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً ﴾[٤] .

* وآية تؤكد أن الجبال تتبع حركات الأرض ، فتدور معها حيث تدور، وهي قوله تعالي : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[٥] آيات تشير إلى شكل مرتفع ارتفاعاً ملحوظاً من الأرض ، كما جاء في قول الله – تعالى – : ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى

(١) سورة النبأ آية ٧ .
(٢) سورة الغاشية آية ١٩. واقرأ : الرعد ٣ ، والحجر ١٩، والأنبياء ٣١ ، والنمل ٦١ ، ولقمان ١٠ ، وفصلت ١٠ ، وق ٧ ، والمرسلات ٢٧ ، والنازعات ٣٢ .
(٣) سورة فاطر آية ٢٧ .
(٤) سورة الرعد آية ٣١.واقرأ : إبراهيم ٤٦ ، والإسراء ٣٧ ، ومريم ٩٠ ، والأحزاب ٧٢ ، والحشر ٢١ .
(٥) سورة النمل آية ٨٨ .

كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١] .

* آيات تذكر كلمة جبال في مقام التشبيه ، وذلك في قول الله – تعالى _ : ﴿ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنْ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ ﴾[٢] .

* آيات تبين إلى الأهمية التاريخية لبعض الجبال ، كجبال ثمود، ومنه قوله سبحانه : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٣] .

* آيات تبيين شهود الجبال للمعجزات مثل قول الله – تبارك وتعالى – : ﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴾[٤] .

* آيات تذكر استخدام الإنسان وبعض المخلوقات للجبال كملجأ يلجئون إليها، وفي ذلك قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ﴾[٥] .

---

(١) سورة البقرة آية ٢٦٠ . واقرأ آية ٤٣ من سورة هود .
(٢) سورة هود آية ٤٣ . واقرأ سورة النور آية ٤٣ .
(٣) سورة الأعراف آية ٧٤ . واقرأ : الحجر ٨٢ ، والشعراء ١٤٩ .
(٤) سورة الأعراف آية ١٧١ . واقرأ : البقرة ٢٦٠ .
(٥) سورة النحل آية ٨١ . واقرأ : النحل ٦٨ ، والرعد ٣ ، والنحل ١٥ ، والنمل ٦١ ، والمرسلات ٢٧ .

* آيات تبين أن الجبال من الكائنات التي تسبح لله ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾(١) .

* آيات تبرز حال الجبال ومصيرها يوم القيامة ، ومنها قوله سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً ﴾(٢) .

وبعد هذا كله يعنينا – في المقام الأول – أن نتعرف على تفسير آية الغاشية التي هي محور حديثنا ، وبعض الآيات التي تزيدها إيضاحاً من آيات المجموعة الأولى ، وذلك علنا نستطيع أن نستخلص خلاصة مفيدة .

تفسير آية الغاشية :

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾(٣)

يقول الإمام الطبري في آية : ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ :

يقول تعالى ذكره لمنكري قدرته على ما وصف في هذه السورة من العقاب والنكال الذي أعده لأهل عداوته والنعيم

(١) الأنبياء آية ٧٩ . ومنها : الحج ١٨ ، وسبأ ١٠ ، وص ١٨ .
(٢) سورة الكهف آية ٤٧ . ومنها آية : طه ١٠٥ ، والطور ١٠ ، والواقعة ٥ ، والحاقة ١٤ ، والمعارج ٩ ، والمزمل ١٤ ، والمرسلات ، ١٠ ، والنبأ ٢٠ ، والتكوير ٣ ، والقارعة ٥ .
(٣) الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠ .

والكرامة التي أعدها لأهل ولايته أفلا ينظر هؤلاء المنكرون قدرة الله على هذه الأمور إلى الإبل كيف خلقها وسخرها لهم وذللها وجعلها تحمل حملها باركة ثم تنهض به والذي خلق ذلك غير عزيز عليه أن يخلق ما وصف من هذه الأمور في الجنة والنار يقول جل ثناؤه أفلا ينظرون إلى الإبل فيعتبرون بها ويعلمون أن القدرة التي قدر بها على خلقها لن يعجزه خلق ما شابهها .. أفلا ينظرون أيضاً إلى السماء كيف رفعها الذي أخبركم أنه معد لأوليائه ما وصف ولأعدائه ما ذكر فيعلموا أن قدرته القدرة التي لا يعجزه فعل شيء أراد فعله وقوله وإلى الجبال كيف نصبت يقول وإلى الجبال كيف أقيمت منتصبة لا تسقط فتنبسط في الأرض ولكنها جعلها بقدرته منتصبة جامدة لا تبرح مكانها ولا تزول عن موضعها... وإلى الأرض كيف بسطت يقال جبل مسطح إذا كان في أعلاه استواء[1] .

وقال العلامة الآلوسي : وإلى الجبال التي ينزلون في أقطارها وينتفعون بمائها وأشجارها كيف نصبت وضعت وضعاً ثابتاً يتأتى معه ارتقاؤها فلا تميل ولا تميد ويمكن الرقي إلى دارها[2] .

---

(١) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن) ١٦٥/٣٠ محمد بن يزيد جرير بن غالب الطبري . أبو جعفر ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ط دار الفكر - بيروت ١٤٠٥ هـ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١١٧/٣٠ للعلامة: محمود الآلوسي أبو الفضل ت ١٢٧٠ هـ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .

تفسير آية النبأ : ﴿ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾[١] :

يقول الطبري : يقول تعالى ذكره معدداً على هؤلاء المشركين نعمه وأياديه عندهم وإحسانه إليهم وكفرانهم ما أنعم به عليهم ومتوعدهم بما أعد لهم عند ورودهم عليه من صنوف عقابه وأليم عذابه فقال لهم ألم نجعل الأرض لكم مهاداً تمتهدونها وتفترشونها حدثنا ابن حميد قال ثنا مهران عن سعيد عن قتادة ألم نجعل الأرض مهاداً أي بساطاً والجبال أوتاداً يقول والجبال للأرض أوتاداً أن تميد بكم[٢] .

ويقول الآلوسي : أي كالأوتاد ففيه تشبيه بليغ أيضاً والمراد أرسينا الأرض بالجبال كما يرسي البيت بالأوتاد قال الأفوه : والبيت لا يبتنى إلا له عمد ولا عماد إذا لم ترس أوتاد ، وفي الحديث : عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : (ثم لما خلق الله الأرض جعلت تميد ، فخلق الجبال فعاد بها عليها فاستقرت ، فعجبت الملائكة من شدة الجبال ، قالوا يا رب هل من خلقك شيء اشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد ، قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد ؟ قال نعم النار ، فقالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار ؟ قال نعم الماء ، قالوا يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الماء ؟ قال نعم الريح ، قالوا يا رب فهل من خلقك شيء

---

(١) سورة النبأ آية ٧ .
(٢) تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل آي القرآن) ٣/٠٣ .

أشد من الريح ؟ قال نعم ابن آدم ، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها من شماله)[1] .

وربطا بين المعاني اللغوية والعلمية وما جاء عن المفسرين في هذا الجانب من الجبال يقول الدكتور زغلول النجار بعد أن ذكر كثيراً من التعريفات للجبال :

يتضح مما تقدم أن كلا من التعريف اللغوي والعلمي الشائع للجبال يقتصر على النتوءات البارزة من هذه التضاريس بالنسبة للمنطقة المحيطة بها ، وعلى قممها ومنحدراتها .

ثم يقول في موضع آخر : وعليه فإن التعريفات الشائعة كلها تقتصر على الأشكال الخارجية لتلك التضاريس ، دون أدنى فكرة عن إمتداداتها – تحت السطح – التي ثبت مؤخراً أنها تبلغ أضعاف ارتفاعها الخارجي لمرات عديدة .

وعلى النقيض من ذلك ، فإن القرآن الكريم الذي أنزل قبل ١٤ قرناً يصف الجبال بأنها أوتاد ، وكما أن الوتد أغلبه مدفون في الأرض، وأقله ظاهر فوق السطح ووظيفته التثبيت، فقد أوضحت الدراسات الحديثة أن الجبال هكذا، بمعنى أن كل ارتفاع على سطح

---

(١) راجع : روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٦/٣٠ ، والحديث أخرجه الإمام أحمد (أحمد بن حنبل ت ٢٤١ هـ) في مسنده عن أنس بن مالك ، حديث رقم ١٢٢٧٥ ، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م . تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وعادل مرشد وصحبهم ، والترمذي في : الجامع الصحيح حديث رقم ٣٣٦٩ ، وقال : هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه .

الأرض له امتداد في داخل غلافها الصخري يتراوح بين ١٠ ، ١٥ ضعف ذلك الارتفاع، وأن هذا الانغراس في داخل الأرض هو الذي يثبت ألواح الغلاف الصخري للأرض ويجعلها صالحة للإعمار .

وقد وصف القرآن الكريم من قبل أربعة عشر قرناً – وبكلمات محددة – كلاً من الشكل الخارجي للجبل ، وارتفاعه فوق سطح الأرض ، وامتداداته الهائلة بداخلها ، والدور الدقيق الذي يؤديه الجبل كوسيلة لتثبيت الغلاف الصخري للأرض ولتثبيت الكوكب ككل وتثبيت التربة على سفوحه، وشبهت الجبال بالسفن التي ترسو في مياه البحار، ويأتي العلم الحديث ليؤكد على أن الجبال تمتد باندفاعها الداخلية؛ لتطفو في نطاق الضعف الأرضي كما تطفو جبال الجليد في مياه المحيطات ، فهي رواس حقيقية لا مجراً ؛ كذلك فإنها تعمل على التقليل من ترنح الأرض في دورانها حول محورها[1] .

إشارة القرآن إلى المفاهيم العلمية للجبال :

يبين القرآن الكريم المفاهيم العلمية الأساسية للجبال في أثني عشر موضعاً منها :

١ – إن الجبال ليست فقط تلك الارتفاعات الكبيرة التي تبدو على سطح الكرة الأرضية ، ولكنها أيضاً امتدادات تلك الارتفاعات

(١) من آيات الإعجاز العلمي الجزء الثالث (المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم) ص ٢٩ ، ٣٠ ، الدكتور : زغلول النجار . مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة. ط : سابعة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م (بتصرف).

داخل الأرض ، والتي يسميها علماء الأرض اليوم "جذور الجبال" ، وهذه حقيقة تؤكدها تلك الارتفاعات داخل الأرض ، والتي يسميها علماء الأرض اليوم باسم "جذور الجبال" ، وهذه حقيقة تؤكدها الآيات القرآنية بوصفها للجبال بأنها أوتاد ، وكما يختفي معظم الوتد إما في التربة أو الصخر ؛ لتثبيت أركان الخيمة ، ويبقى الجزء الأصغر منه ظاهراً فوق سطح الأرض ، فلابد وأن الجزء الأكبر من الجبال يختفي بالمثل في القشرة الأرضية .

يقول الله – سبحانه – : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَاداً * وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ﴾(١)

ويعتبر مصطلح (وتد) الذي استخدمه القرآن الكريم لوصف الجبل أكثر دقة من الناحيتين اللغوية والعلمية من كلمة "جذر" المستعملة حالياً لوصف الامتدادات الداخلية للجبال .

٢ – يؤكد القرآن الكريم في عشر مواضع أخرى على الدور الذي تؤديه الجبال في توازن الأرض ، حيث يقول ربنا – تبارك وتعالى–:﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً ﴾(٢) .

٣ – وفي موضع آخر يحث القرآن الكريم الناس على التفكر في عدد من الظواهر في خلق الله – سبحانه وتعالي – ، ككيفية تكون الجبال ، وقد أدي هذا التأمل إلى نظرية التوازن الضغطي للقشرة الأرضية، أي تعرضها لضغوط متساوية من جميع الجهات

(١) سورة النبأ آية ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الرعد آية ٣.ومثلها الحجر ١٩ ، والنحل ١٥ ، والأنبياء ٣١ ، والنمل ٦١ ، ولقمان ٦١، وفصلت ١٠، وق ٧، والمرسلات ٢٥ – ٢٧.

التي تفسر كيف تنصب الجبال على سطح الأرض. وفي ذلك يقول الله سبحانه في الآية التي هي محور حديثنا : ﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾(١) .

٤ – ويصف القرآن الكريم في آية أخري من سورة فاطر الجبال بأنها تتكون من جدد بيضاء وحمراء مختلفة الألوان ومن جدد أخري سوداء فيقول : ﴿ وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾(٢).

ويؤكد القرآن الكريم في الموضع الأخير من هذه المجموعة على حقيقة أن الجبال أجسام غير ثابتة ، حيث إنها تتبع حركة الأرض في دورانها حول محورها فيقول: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾(٣).

---

(١) الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠ .
(٢) سورة فاطر آية ٢٧ .
(٣) سورة النمل آية ٨٨ . من آيات الإعجاز العلمي الجزء الثالث (المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم) ص ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ الدكتور / زغلول النجار ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة ، ط سابعة ١٤٢٥ هـ ٢٠٠٤ م .

﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

(الأرض) في اللغة العربية اسم جنس للكوكب الذي نحيا عليه، تميزاً له عن بقية الكون، والذي يجمع تحت اسم السموات أو السماء، ولفظة (الأرض) مؤنثة ، والأصل أن يقال لها (أرضة) والجمع (أرضات) و(أرضون) بفتح الراء أو بتسكينها، وقد تجمع على (أروض) و(أراض)، ولفظة (الأراضي) تستخدم على غير قياس .

ويعبر (بالأرض) عن أسفل الشيء ، كما يعبر بالسماء عن أعلاه، فكل ما سفل فهو (أرض) ، وكل ما علا فهو سماء[١] .

الأرض في القرآن الكريم :

ورد ذكر لفظ (الأرض) في أربعمائة وواحد وستين (٤٦١) موضعاً في القرآن الكريم [٢]، منها ما يشير إلى الأرض ككل في مقابلة السماء، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها كلها، أو إلى جزء منها، (واليابسة هي جزء من الغلاف الصخري للأرض وهي كتل القارات السبع المعروفة والجزر المحيطية العديدة) ، ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض .

---

(١) لسان العرب مادة (أرض) ج ٧ ص ١١١ و ١١٢ .
(٢) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . مادة (أرض) محمد فؤاد عبدالباقي .

أقوال المفسرين في آية الغاشية : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

قال شيخ المفسرين : وقوله ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ يقول وإلى الأرض كيف بسطت يقال جبل مسطح إذا كان في أعلاه استواء[١] .

وقال الإمام ابن كثير: ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي كيف بسطت ومدت ومهدت، فنبه البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه ، والأرض التي تحته على قدرة خالق ذلك وصانعه ، وأنه الرب العظيم الخالق المالك المتصرف ، وأنه الإله الذي لايستحق العبادة سواه[٢] .

وقال الإمام الشوكاني : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ أي بسطت، والسطح بسط الشيء ، يقال لظهر البيت إذا كان مستوياً : سطح، قرأ الجمهور سطحت مبنياً للمفعول مخففاً ، وقرأ الحسن بالتشديد، وقرأ على بن أبي طالب وابن السميفع وأبو العالية خلقت ورفعت ونصبت وسطحت على البناء للفاعل وضم التاء فيها كلها[٣].

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن ١٦٥/٣٠ لابن جرير الطبري .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٥٠٥/٤ .
(٣) تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير مج ٢ ج ٣٠ للإمام محمد بن على الشوكاني ١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ . ط : دار الكتاب العربي . بيروت . ط ثانية ١٤٢٢هـ ٢٠٠١ م .

وقال البيضاوي : ﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ بسطت حتى صارت مهاداً ، وقرئ الأفعال الأربعة على بناء الفاعل للمتكلم، وحذف الراجع المنصوب ، والمعني أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقات من البسائط والمركبات ، ليتحققوا كمال قدرة الخالق – سبحانه وتعالى – فلا ينكروا اقتداره على البعث ، ولذلك عقب به أمر المعاد ، ورتب عليه الأمر بالتذكير[١] .

وقال صاحب التحرير والتنوير : ثم نزل بأنظارهم إلى الأرض وهي تحت أقدامهم وهي مرعاهم ومفترشهم ، وقد سطحها الله ، أي خلقها ممهدة للمشي والجلوس والاضطجاع . ومعنى ﴿ سُطِحَتْ ﴾ : سويت ، يقال سطح الشيء إذا سواه ومنه سطح الدار .

والمراد بالأرض أرض كل قوم لا مجموع الكرة الأرضية ، وبنيت الأفعال الأربعة إلى المجهول للعلم بفاعل ذلك[٢] .

وقد استخلص المتخصصون في أبحاث الآيات الكونية العديد من الحقائق العلمية عن الأرض أشارت إليها الآيات القرآنية ، نذكر منها ما يقربنا من فهم الآية الكريمة على النحو التالي :

١ – آيات تأمر الإنسان بالسير في الأرض ، والنظر في كيفية بدء الخلق ، وهي أساس المنهجية العلمية في دراسة علوم الأرض .

---

(١) تفسير البيضاوي ٤٨٤/٥ .
(٢) التحرير والتنوير ٤٨٠٨/٢٠ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر ابن عاشور التونسي ت ١٣٩٣ هـ ط الدار التونسية للنشر .

٢ – آيات تشير إلى شكل وحركات وأصل الأرض ، منها ما يصف كروية الأرض، ومنها ما يشير إلى دورانها، ومنها ما يؤكد على عظم مواقع النجوم منها، أو على حقيقة اتساع الكون و(الأرض جزء منه) ، أو على بدء الكون بجرم واحد (مرحلة الرتق) ، ثم انفجار ذلك الجرم الأولي (مرحلة الفتق) ، أو على بدء خلق كل من الأرض والسماء من دخان، أو على انتشار المادة بين السماء والأرض (المادة بين الكواكب وبين النجوم وبين المجرات)، أو على تطابق كل من السماوات والأرض (أي تطابق الكون) .

٣ – آيات تشير إلى رقة الغلاف الصخري للأرض، وإلى تسوية سطحه وتمهيده وشق الفجاج والسبل فيه، وإلى تناقص الأرض من أطرافها .

ومن هنا تتضح أهمية القرآن الكريم في هداية البشرية ، في زمن هي أحوج ما تكون إلى الهداية الربانية ، كما تتضح أهمية دراسات الآيات الكونية في كتاب الله ﷻ[1].

فسبحان من خلق الأرض بهذا القدر من الإحكام والإتقان ، وترك فيها من الآيات ما يشهد لخالقها بطلاقة القدرة، وشمول العلم وعظمة الألوهية، والتفرد بالوحدانية، وسبحان الذي أنزل هذه الآيات المعجزة من قبل ألف وأربعمائة سنة ولم يكن لأحد من الخلق إلمام بتلك الآيات الأرضية، والتي لم تتكشف أسرارها

(١) " وفي الأرض آيات للموقنين " بقلم الدكتور زغلول النجار موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، الشبكة العالمية للإنترنت موقع www. 55A, net

للإنسان إلا منذ عقود قليلة من الزمان، وقد يرى فيها القادمون ما لا نراه نحن اليوم ، ليظل القرآن الكريم مهيمناً على المعرفة الإنسانية مهما اتسعت دوائرها، وتظل آياته الكونية شاهدة باستمرار على أنه كلام الله الخالق .

المبحث الرابع

صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة

الآيات الكونية في القرآن الكريم وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله ﷻ بل هي لب الدعوة من حيث أركانها وأساليبها وميادينها ؛ وذلك لأن كثيراً من الآيات الكونية ورد في معرض الدعوة إلى الله – سبحانه– وذلك من خلال إثبات وجود الله تعالى ، وإقامة الحجة على ذلك بالبراهين الكونية التي لا ينكرها منصف أو صاحب عقل رشيد؛ كما أن ربط الآيات الكونية بالحقائق العلمية المقطوع بثبوتها علمياً له أثره الفعال في دعوة غير المسلمين إلى الإسلام ، وخاصة حينما تكون الدعوة بالطريقة المثلى ، والأثر ليس في دعوة غير المسلمين فحسب ، بل الأثر أيضاً في رسوخ الإيمان وزيادته لدي كثير من المسلمين؛ لذا أصبح من الضروري تطوير منهج الدعوة إلى الله بما يتلاءم مع التقدم العلمي الحديث ، وذلك بدعم الدعوة الإسلامية بمنهج التفسير العلمي الصحيح للقرآن الكريم، والنظر في الآيات الكونية من وجهة عصرية ، حتى لا يتخلف الدعاة عن الركب ، وتعود كلمتهم مسموعة ولها قيمتها .

ومهمة الداعية إلى الله هي دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان بالله وحسن طاعته ، وهذا يتطلب حسن إقناع من الداعية لمن يدعوه ، ولا يتحقق هذا الإقناع إلا بأدلة قاطعة ، وبراهين ساطعة تقوى بها حجة الداعية أمام من يدعوهم .

ولاشك أن الآيات الكونية في القرآن الكريم من أفضل السبل لتحقيق ذلك ، لما لها من مؤثرات إيجابية على الداعية الإسلامي ، من جهة تزويده بالثقافة الكونية التي تتمثل في علوم الظواهر الكونية كعلوم الطب والفلك والبحار والأرض .. الخ ، وبهذه الثقافة يكون الداعية أكثر وعياً لما يحيط به وأعمق إدراكاً لأبعاد وجوده ووظيفته في الكون، كما تجعله قوي الحجة مستنير البصيرة خاصة في حواره ومناقشاته مع الغير .

والآيات الكونية في القرآن الكريم –أيضاً– لها أثرها الإيجابي على عقيدة الداعية ، ويتمثل ذلك في قوة إيمانه وفي ثباته على الحق في دعوته، لأن نفسه حينما تنسجم مع الإشارات الكونية وتقتنع بها اقتناعاً تاماً ؛ يسهل عليها أن تعرض ذلك على الناس ، وتربط بين الآيات المسطورة والمنظورة متفننة في ابتكار اساليب حديثة ، مستخدمة وسائل بحثية وإقناعية حديثة ، وفق منهج علمي صحيح .

وكما أن للآيات الكونية أثرها الإيجابي على عقيدة الداعية وعلى ثقافته ؛ فلها أثرها الإيجابي أيضاً على أخلاقه ، لشدة العلاقة بين العقيدة الصحيحة والأخلاق القويمة ، لأنه حينما تصح العقيدة ويقوى الإيمان تقوم الأخلاق .

إذن فالإشارات الكونية والعلم بها يكون له أفضل الأثر على حياة الداعية المسلم من ناحية ثقافته وعقيدته، ثم على سلوكه وأخلاقه، لما يلمسه في هذه الإشارات ومنهجها من أدلة قاطعة على وجود الله ومظاهر قدرته – سبحانه وتعالى – .

ومن صلة الآيات الكونية بالدعوة أنها لها أثرها الفعال على المدعو ، فإذا كان للإشارات الكونية والعلم بها أثر كبير على حياة الداعية المسلم من ناحية ثقافته وعقيدته ، ثم على سلوكه وأخلاقه ، فمما لاشك فيه أن هذا الأثر بكل جوانبه سينعكس على المدعو مسلماً كان أو غير مسلم .

وذلك لأن المدعو إما أن يكون مسلماً أو غير مسلم، فإن كان مسلماً فإسلامه يطالبه أن ينظر في هذه الآيات، وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات التي تحث العباد على النظر في آثار قدرة الله في هذا الكون ، وما ذاك الحث إلا لأن النظر له أعظم الأثر في نفوس الناظرين والمتفكرين، من جهة رسوخ العقيدة لديهم، واستمرارهم على الحق، ومن هذه الآيات قول الله تعالى ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] ، وقوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2] .

يقول الدكتور عبد الله شحاته : إن الهدف الخاص الأساسي للإشارات العلمية الواردة في القرآن الكريم هو دعوة المسلم إلى بذل الجهد والعمل على التعمق في العلوم الدنيوية؛ ليتحقق له الفهم

(١) سورة العنكبوت آية ٢٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١٦٤ .

والقوة اللازمة لإدلاء هيمنته في الكون المتمثلة في عبادة الله تعالى وخلافته في الأرض ، فدراسة العلماء والباحثين لطبقات الأرض وصخورها وكنوزها ومحتوياتها ، ولطبقات الفضاء والهواء ، ومعرفة أسرار الكون ونظامه، امتثالاً لأمر الله وتلبية لرغبة القرآن الكريم في الحث على العلم والمعرفة يحقق لهم منفعة عظيمة في الدنيا والآخرة .

أما إذا كان المدعو غير مسلم؛ فإن الإشارات الكونية لابد وأن يكون لها دور واضح في هدايته إلى الإيمان ، لأن نظره في الآية الكونية أو قراءته وتدبره لها سيوافق فطرته السليمة، وعقله الواعي، وقلبه الفارغ من كل هوى أو ميول إلى ملة آبائه .

والآيات الكونية التي نحن بصدد بحثها في سورة الغاشية – بموقعها من الآيات التي قبلها والتي بعدها – تمثل دليلاً واضحاً على صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة ، وبيان ذلك أنه بعد أن ذكر الله – سبحانه وتعالى – دليل قدرته على بعث الأجساد ، ولفت أنظار الجاحدين إلى مظاهر قهره وغلبته لهذا العالم، ثم وبخهم على إنكارهم وتماديهم في باطلهم، على وضوح الحجة وظهور البرهان، أردف ذلك أمره ﷺ أن يذكرهم بهذه الأدلة وأشباهها مما لا يبقى معه مجال للشك والتردد ..

يقول صاحب الظلال في إيضاح ذلك :

فذكر بهذا وذاك. ذكرهم بالآخرة وما فيها وذكرهم بالكون وما فيه. إنما أنت مذكر. هذه وظيفتك على وجه التحديد . وهذا دورك

في هذه الدعوة ، ليس لك ولا عليك شيء وراءه . عليك أن تذكر . فإنك ميسر لهذا ومكلف إياه .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ .. فأنت لا تملك من أمر قلوبهم شيئاً . حتى تقهرها وتقسرها على الإيمان ، فالقلوب بين أصابع الرحمن، لا يقدر عليها إنسان .

فأما الجهاد الذي كتب بعد ذلك فلم يكن لحمل الناس على الإيمان . إنما كان لإزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس. فلا يمنعوا من سماعها، ولا يفتنوا عن دينهم إذا سمعوها. كان لإزالة العقبات من طريق التذكير الدور الوحيد الذي يملكه الرسول. وهذا الإيحاء بأن ليس للرسول من أمر الدعوة شيء إلا التذكير والبلاغ يتكرر في القرآن لأسباب شتى في أولها إعفاء أعصاب الرسول من حمل هم الدعوة بعد البلاغ، وتركها لقدر الله يفعل بها ما يشاء : فإلحاء الرغبة البشرية بانتصار دعوة الخير وتناول الناس لهذا الخير ، إلحاء عنيف جداً يحتاج إلى هذا الإيحاء المتكرر بإخراج الداعية لنفسه ولرغائبه هذه في مجال الدعوة، كي ينطق إلى أدائها كائنة ما كانت الاستجابة ، وكائنة ما كانت العاقبة . فلا يعني نفسه بهم من آمر وهم من كفر . ولا يشغل باله بهذا الهم الثقيل حين تسوء الأحوال من حول الدعوة ، وتقل الاستجابة ، ويكثر المعرضون والمخاصمون ..

بهذا يتحدد دور الرسول في هذه الدعوة ودور كل داعية إليها بعده .. إنما أنت مذكر وحسابهم بعد ذلك على الله. ولا مفر لهم من العودة إليه، ولا محيد لهم من حسابهم وجزائه. غير أنه ينبغي أن

يفهم أن من التذكير إزالة العقبات من وجه الدعوة لتبلغ إلى الناس وليتم التذكير . فهذه وظيفة الجهاد كما تفهم من القرآن ومن سيرة الرسول سواء ، بلا تقصير فيها ولا اعتداء[١] ..

توظيف الآيات الكونية في القرآن لخدمة الدعوة :

وإذا كانت الآيات الكونية شديدة الصلة بالدعوة إلى الله بهذه الطريقة ، ولها كل هذه الأهمية في مجال الدعوة، فالسؤال الذي يطرح نفسه الآن : كيف يمكن توظيف الآيات الكونية في القرآن لخدمة الدعوة ؟

وحينما نتدبر الآيات التي وردت بها الإشارات الكونية في القرآن الكريم يتضح لنا أنها غالباً ما تذيل بجمل هادفة مثل قول الله – تعالى – ﴿ لآيات لقوم يعـقلون ﴾ ، ﴿ لآيات لقوم يتفكرون ﴾ ، ﴿ لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴾ ... إلى غيرها من الآيات .

إن هذه الجمل التي تختم بها الآيات تبين أهداف الإشارات العلمية القرآنية ، كما أنه يتضح من ورودها في ختام الآيات أن الحقيقة العلمية التي تشير إليها الآية ليست مقصودة لذاتها؛ وإنما ذلك لهدف أسمى ألا وهو إرشاد العباد إلى الإيمان بالله ووحدانيته وقدرته .

والآيات القرآنية التي تحوي الإشارات الكونية إما أن تكون لها أهداف رئيسة عامة ، وهي الدعوة إلى الإيمان بأن للكون إلهاً

---

(١) في صورة القرآن ج ٦ ص ٣٨٩٩ للشيخ سيد قطب ، ط: دار الشروق، بيروت ، ١٩٧٢م.

واحداً خالقاً قادراً ، وكذلك الرد على حجج المنكرين والمشركين، مع بيان أن وجود الإنسان في هذا الكون ما هو إلا لعبادة الله وحده، وما هذا الوجود إلا مرحلة انتقالية ثم يعرض للحساب في الآخرة ، وإما أن تكون لها أهداف فرعية خاصة ، وهذه الأهداف تهدف إلى فهم الكون وإشاراته وما فيه من مخلوقات لله – سبحانه – ، كما أن هذه الآيات تظهر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر الطفرة العلمية، وفي هذا دليل على إعجاز القرآن الكريم وعطائه المستمر وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا بقوله : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[1] .

ومن هنا فإن العلماء يجب أن يوظفوا جوانب الإشارات الكونية في القرآن الكريم لخدمة تبليغ الدعوة إلى الله بما يتناسب مع الطفرة العلمية في العصر الحديث ، وذلك يكون باستخدام معطيات العصر وتسخيرها لخدمة الآيات القرآنية ، والدعوة بها ، ومن ثم فسيكون لكل فئة طريقتها ، فالمسلم له طريقة تناسبه في دعوته بتلك الإشارات ، وغير المسلم له طريقته التي تناسبه، وخالي الذهب تكون له طريقته، والذي له فكر أو تحيز مسبق له طريقته، .. وهكذا فالكافر المتجرد غير المتحيز حينما نعرض له الإشارة الكونية أو العلمية التي تم اكتشافها حديثاً وبكل تفاصيلها، ثم نعرض له الآية القرآنية التي ذكرت هذه الإشارة الكونية منذ أكثر من

(١) سورة فصلت آية ٥٣ .

أربعة عشر قرناً، هنا سنجده غالباً ما يسلم فوراً، ويدخل في الإسلام، إما دعوة المسلم الموحد فهي تذكير ودعوة للتدبر والتفكر، وهذا يكون من خلال شرح التفسيرات العلمية للآيات الكونية، وبالتالي فمن يدرس الكون ويطالع آيات القرآن يجد التطابق والانسجام بين القرآن الكريم كتاب الله المسطور والكون كتاب الله المنظور .

ونقف قليلاً مع الشيخ الغزالي في ختام سورة الغاشية عند قوله تعالي ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ يقول:

المسلمون ليسوا مكلفين بإقامة دولة استعمارية تذل الإعناق وتسرق الخيرات. لقد كلفوا بإقامة دولة كبرى تحرر العقول وتحدو البشر إلى الكمال .

وقيام هذه الدولة ليس امتيازاً لجنس ولا تفوقاً لنسب؛ إنه لون شريف من الجهاد في سبيل الله فهل نعى ذلك ونعمل له جيداً ؟!

لقد أصيبت الفضائل في مقاتلها ، لقدرة السلطات الكفور على حماية الأهواء ونشر المظالم، ويجب أن تقوم سلطة مؤمنة بحماية الطهارة وإقرار العدالة والدعوة الدءوب للإيمان والصلاح، وعلى كل حال، فمهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله العدل ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾[1] .

(١) سورة الغاشية الآيتان ٢٥ ، ٢٦ . نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم ص ٥١٥ ، ٥١٦ للشيخ محمد الغزالي . ط دار الشروق – القاهرة – ط الثامنة ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

إذن فالآيات الكونية في القرآن الكريم وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله ﷻ بل هي لب الدعوة من حيث أركانها وأساليبها وميادينها، لما تحويه من أهداف رئيسة عامة، من مثل الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق القادر ، والرد على حجج المنكرين والمشركين ، وبيان سر خلق الإنسان ووجوده في هذا الكون، وأهداف فرعية خاصة ، من مثل فهم الكون وإشاراته وما فيه من مخلوقات لله – سبحانه–، كما أن هذه الآيات تظهر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر الطفرة العلمية والعلم بالإشارات الكونية يكون له أفضل الأثر على حياة الداعية المسلم من ناحية ثقافته وعقيدته، ثم على سلوكه وأخلاقه، وهذا كله ينعكس بالطبع على المدعو، فواجب العلماء أن يوظفوا جوانب هذه الإشارات الكونية لخدمة تبليغ الدعوة إلى الله، بما يتناسب مع الطفرة العلمية في العصر الحديث .

واجب المسلم تجاه الآيات الكونية :

إن الله – سجانه – أمرنا أن ننظر في آياته الكونية، وأقرب آية من الآيات العظيمة في هذا الكون هي نفس الإنسان التي بين جنبيه، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[1] فالنفس من عجائب خلق الله تعالى ، وليس المقصود أن نقر بأن الله هو الخالق الرازق فحسب، وإنما لننتقل من هذا الإقرار إلى توحيد الإلوهية، فهو المستحق للعبودية وحده لا شريك له ، والحديث عن آيات الله

(١) سورة الذاريات آية ٢١ .

الكونية في السماوات أو في الأرض أو في جسد الإنسان أو غير ذلك لا تفيه هذه السطور، بل يحتاج إلى كتابات كثيرة ، لكننا نحاول التذكرة فقط بما يناسب طبيعة بحثنا .

يقول صاحب الظلال في بيان ذلك : إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته، ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة ، ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساباً وجزاء ، إنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة ويسمع هذه الإيحاءات أولو الألباب من الناس الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين، غير واعين وهذه الحقيقة تمثل أحد مقومات التصور الإسلامي عن هذا الكون، والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى ، وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون وإله الكون – سبحانه وتعالي – فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود[1] .

والله سبحانه وتعالي له آيات تملأ الأرض والسماء، ولكننا غافلون عنها، ومن الإعجاز الإلهي أن آيات الله لا تنتهي، فإذا مشيت في الطريق فهناك آيات، وإذا صعدت إلى الجبل فهناك

(١) في ظلال القرآن (تفسير سورة آل عمران – مقدمة الآيات ١٩٠ – ٢٠٠) للشيخ سيد قطب . ط دار الشروق . بيروت . ص ١٩٧٢م .

آيات، وإذا نزلت قاع البحر وجدت آيات، وإذا صعدت إلى السماء كانت هناك أكثر من آية .

وإذا نزلت إلى باطن الأرض فهناك آيات وآيات، هناك آية في تلك الشجيرة الصغيرة التي تراها تنبت في سطح الجبل، ساقها هشة لينة ربما لا تحتمل قبضة يدك، ومع هذا فقد فتت الصخر ونبتت فيه، واستطاعت الشجيرة الرقيقة الرفيعة أن تمتد وتضرب في باطن الجبل وتحصل على الغذاء .

وتتعجب أنت كيف يمكن أن يحدث ذلك !! ومع أنك لو أردت أن تضع ثقباً في سطح الجبل لاحتجت إلى آلات حادة وقوى كثيرة، وتعرف أن الله – سبحانه وتعالى – الذي خلقها قد ألان لها الصخر فنبتت فيه، وألان لجذورها صخور الجبل فامتدت حتى وصلت إلى المصدر الذي يعطيها الغذاء .

هذه الآيات لا تحتاج إلى بحث ولا إلى ميكروسكوب، ولكنها تحتاج لمجرد التأمل ، وفي الأرض آيات كثيرة لا تحتاج منا أكثر من أن نتأملها، لنعرف قدرة الله وعظمته ونؤمن به – سبحانه –، ولذلك قال في كتابه الكريم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾[1] .

لماذا خص الله العلماء بالخشية؟ لأنهم وهم يبحثون في مخلوقات الله في الأرض، يرون أسراراً ودقة خلق وإبداع تكوين هذا كله يجب أن يجعلهم أول الساجدين لله، أول العابدين له –

(١) سورة فاطر آية ٢٨ .

سبحانه – ولكن هؤلاء العلماء الماديين بدلاً من أن يفعلوا ذلك، أخذوا يحاولون النيل من هذا الدين، والإنسان يعتقد أنه وصل إلى أسرار الكون، ولكنه في الحقيقة لم يصل حتى إلى أسرار نفسه، بل إنه ينتقل من قانون إلى قانون ولا يعرف كيف ينتقل ، ولا ما هو سر هذا الانتقال .

وعن أحقية المسلم بالتفكر في الآيات الكونية، والتى تبرزها هذه السورة التي نحن بصدد الحديث عنها يقول صاحب التصوير الفني في القرآن :

هذه اللمسات العريضة قد تجمع بين السماء والأرض في نظام؛ وبين مشاهد الطبيعة ومشاهد الحياة في سياق. حيث تتسع رقعة الصورة لهذا كله؛ على أساس من " الوحدة الكبيرة" بدل " الوحدة الصغيرة" .

من ذلك ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ .

فهذه ريشة تجمع بين السماء والأرض والجبال والجمال، في مشهد واحد، حدوده تلك الآفاق الواسعة، من الحياة والطبيعة، والملحوظات هنا هو " الضخام" وما تلقيه في الحس من استهوال؛ والأجزاء موزعة بين الاتجاه الأفقي في السماء المرفوعة والأرض المبسوطة، والاتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام. وهذه دقة تأخذها عين المصور المبدع ، في الأشكال والأحجام.

ومما يلاحظ هنا بعين المصور كذلك أن لوحة طبيعية قاعدتها السماء والأرض، لا يبرز فيها من الجماد إلى الجبال، ولا يبرز فيها من الأحياء إلى الجمال، أو ما هو في حجم الجمال؛ والجمل هو الحيوان المناسب لأنه أليف الصحراء الفسيحة التى تحدها السماء والجبال[١]!

لهذا كله يوجه القرآن أنظار المخاطبين إلى تدبر خلق الإبل؛ وهي بين أيديهم، لا تحتاج منهم إلى نقلة ولا علم جديد ..

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ؟ .. أفلا ينظرون إلى خلقها وتكوينها ؟ ثم يتدبرون : كيف خلقت على هذا النحو المناسب لوظيفتها. المحقق لغاية خلقها، المتناسق مع بيئتها ووظيفتها جميعاً !

إنهم لم يخلقوها، وهي لم تخلق نفسها، فلا يبقى إلا أن تكون من إبداع المبدع المتفرد بصنعته، التي تدل عليه، وتقطع بوجوده؛ كما تشي بتدبيره وتقديره.

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ؟ وتوجيه القلب إلى السماء يتكرر في القرآن. وأولى الناس بأن يتوجهوا إلى السماء هم سكان الصحراء. حيث للسماء طعم ومذاق، وإيقاع وإيجاد، كأنما ليست السماء إلا هناك في الصحراء!

---

(١) التصوير الفني في القرآن ص ١٠٣ للشيخ سيد قطب ، ط دار المعارف. القاهرة ، ط تاسعة .

السماء بنهارها الواضح الباهر الجاهز. والسماء بأصيلها الفتن الرائق الساحر. والسماء بغروبها البديع الفريد الموحي. والسماء بليلها المترامي ونجومها المتلألئة وحديثها الفاتر .

والسماء بشروقها الجميل الحي السافر .

هذه السماء . في الصحراء .. أفلا ينظرون إليها؟ أفلا ينظرون إليها كيف رفعت؟ من ذا رفعها بلا عمد ؟

ونثر فيها النجوم بلا عدد؟ وجعل فيها هذه البهجة وهذا الجمال وهذا الإيجاد؟ إنهم لم يرفعوها وهي لم ترفع نفسها . فلابد لها من رافع ولابد لها من مبدع. لا يحتاج الأمر إلى علم ولا إلى كد ذهن . فالنظرة الواعية وحدها تكفي[1] .

يقو الشيخ محمد الغزالي عن هذا الواجب الذي برز في هذه السورة : وقد بدأت السورة بوعيد ووعد، إثارة للرهبة ، والرغبة ثم دفعت العقل إلى التفكير في عناصر البيئة العربية عندما لفته إلى الإبل والجبال والآفاق العريضة، ليخلص من ذلك إلى إفراد الله بالعبادة ، وهجر الأصنام الموروثة .

وانتهت السورة بتحديد رسالة الأمة الإسلامية بين الناس، وهي التوعية والتذكير. فإذا فقد الأنام إدراكهم للحكمة من وجودهم، نهض المسلمون بهذا العبء فحاربوا الإلحاد والمنكر والغفلة عن الله !!

(١) في ظلال القرآن ج ٦ ص ٣٨٦٨ للشيخ سيد قطب ، ط دار الشروق – بيروت ، ط ١٩٧٢ م .

وعونهم في هذه السبيل الكتاب الخالد الذي شرفوا به .. ثم اتخذوه مهجوراً في هذه السنين العجاف ..

والوعيد الذي تصدر السورة وصف الأشرار بما يبعث على الكآبة .

ثم يقول عن صفات الجنة خلال حديثه عن موضوعية السورة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ * لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴾ ومن صفات الجنة أن اللغو لا مكان له فيها، لأنه سفه غير لائق بأولي الألباب ، الذي يليق بأولي الألباب إعمال العقول وراء المجهول حتى تستبينه !

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ؟

والاستفهام بكيف دعوة ممتدة للعقل الإنساني أن يبحث ويحاول استكشاف الكون بما فيه من نبات وجماد .. ثم ينعى من يعرضون عن إبراز الفلسفة القرآنية التي توجه الأنظار إلى الآيات الكونية ويلهثون وراء الفلسفة اليونانية فيقول :

وقد عاتبت أسلافنا على هجرهم للفلسفة القرآنية الدراسية للمادة، وانشغالهم بالفلسفة اليونانية الباحثة في التصورات والأوهام. وإن كان من آبائنا من سد هذه الخلة ، لكنهم للأسف قلة[1] ..

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي ، دار الشروق ، القاهرة .

ويشير الإمام الخازن إلى وضوح هذا الواجب في آيات الغاشية فيقول :

فإن قلت كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والأرض والجبال ولا مناسبة بينهما ، ولم بدأ بذكر الإبل قبل السماء والأرض والجبال؟ قلت لما كان المراد ذكر الدلائل الدالة على توحيده وقدرته وأنه هو الخالق لهذه الأشياء جميعها، وكانت الإبل من أعظم شيء عند العرب فينظرون إليها ليلاً ونهاراً ويصاحبونها ظعناً وإسفاراً ذكرهم عظيم نعمته عليهم فيها ولهذا بدأ بها ولأنها من أعجب الحيوانات عندهم، .. ولما ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ولم يعتبروا ولم يتفكروا فيها خاطب نبيه ﷺ فقال تعالي : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴾ أي فعظ فإنما أنت واعظ ﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ أي بمسلط فتكرههم علي الإيمان وهذه الآية منسوخة نسختها آية القتال ﴿ إِلاَّ مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴾ استثناء منقطع عما قبله معناه لكن من تولى وكفر بعد التذكير ﴿ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ ﴾ وهو أن يدخله النار وإنما قال الأكبر لأنهم عذبوا في الدنيا بأنواع من العذاب مثل الجوع القحط والقتل والأسر فكانت النار أكبر من هذه كله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴾ أي رجوعهم بعد الموت ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ يعني جزاءهم بعد الرجوع إلينا والله أعلم[1] .

ومن آياته خلق السموات والأرض، فمن نظر إلى السماء في حسنها وكمالها وارتفاعها وعظمتها، عرف بذلك تمام قدرته سبحانه

(١) مجمع التفاسير (تفسير الخازن) ٦/٥٠٠ ، ٥٠١ ط : دار الدعوة بالرياض .

﴿ أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴾[١] ، ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾[٢]، ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾[٣] .

ومن آياته خلق الأرض وما فيها من الجبال الرواسي، والخلق الذي لا يحصيه إلا الله – سبحانه وتعالى –، فلننظر كيف مهدها الله، وسلك لنا فيها سبلاً ، وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها، ويسرها لعباده فجعلها لهم ذلولا يمشون في مناكبهم ويأكلون من رزقه، وانظر كيف جعلها الله قراراً لخلقه لا تضطرب ولا تميل بهم إلا بإذن الله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾[٤] .

والقرآن الكريم يشير في كثير من آياته إلى الكون وإلى العديد من مكوناته، وهذه الآيات تأتي في مقام الاستدلال على أن الذي أبدع هذا الكون بعلمه وحكمته وقدرته قادر على إفنائه، وعلى إعادة خلقه من جديد .

وفي تشجيع الإنسان على التفكير والتدبر في خلق السموات والأرض يقول الله – سبحانه وتعالى – : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

(١) سورة النازعات آية ٢٧ – ٢٨ .
(٢) سورة الذاريات آية ٤٧ .
(٣) سورة ق آية ٦ .
(٤) سورة الذاريات آية ٢٠ .

السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[١] .

وهذا احتجاج من الله تعالى ذكره على قائل ذلك – يشير إلى ما قاله اليهود : إن الله فقير – تعالى الله عن ذلك – وعلى سائر خلقه بأنه المدبر المصرف الأشياء ، والمسخر ما أحب وإن الإغناء والإفقار إليه وبيده، فقال جل ثناؤه تدبروا أيها الناس واعتبروا فيما أنشأته فخلقته من السموات والأرض لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقبت بينه من الليل والنهار فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم وتسكنون في هذا راحة لأجسادكم ، معتبر ومدكر وآيات وعظات، فمن كان منكم ذا لب وعقل يعلم أن من نسبني إلى أني فقير وهو غني كاذب مفتر ، فإن ذلك كله بيدي أقلبه وأصرفه، ولو أبطلت ذلك لهلكتم، فكيف ينسب فقر إلى من كان كل ما به عيش ما في السموات والأرض بيده وإليه، أم كيف يكون غنياً من كان رزقه بيد غيره إذا شاء حرمه !! فاعتبروا يا أولي الألباب[٢] .

﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً﴾ أي يذكرونه دائماً على الحالات كلها، قائمين وقاعدين ومضطجعين، وقيل: معناه يصلون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم، .. ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ استدلالاً واعتباراً وهو أفضل العبادات[٣] ؛

(١) سورة آل عمران آية ١٩٠ – ١٩١ .
(٢) الطبري ٤/٢٠٩ .
(٣) البيضاوي ٢/١٣٠ .

لأنه مخصوص بالقلب والمقصود من الخلق، ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً ﴾ على إرادة القول، أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلى المتفكر فيه، أي الخلق على أنه أريد به المخلوق من السموات والأرض، أو إليهما؛ لأنهما في معني المخلوق، والمعنى: ما خلقته عبثاً ضائعاً من غير حكمة ، بل خلقته لحكم عظيمة، من جملتها: أن يكون مبدأ لوجود الإنسان، وسبباً لمعاشه، ودليلاً يدله على معرفتك ، ويحثه على طاعتك، لينال الحياة الأبدية والسعادة السرمدية في جوارك، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيها لك من العبث وخلق الباطل ، ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ للإخلال بالنظر فيه والقيام بما يقتضيه[1] .

وحينما تحدث صاحب الظلال عن هاتين الآيتين بين الآيات التي تستحث الإنسان على التفكر، وعلاقة التفكر بالذكر والدعاء قال :

ما الآيات التي تتراءى لأولي الألباب عندما يتفكرون في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار وهم يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؟ وما علاقة التفكر في هذه الآيات بذكرهم الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم؟ وكيف ينتهون من التفكر فيها إلى هذا الدعاء الخاشع الواجف ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾[2] إلى نهاية ذلك الدعاء؟ إن التعبير يرسم هنا صورة حية من الاستقبال السليم للمؤثرات الكونية في الإدراك

(١) البيضاوي ١٣١/٢ .
(٢) سورة آل عمران آية ١٩١ .

السليم وصورة حية من الاستجابة السليمة لهذه المؤثرات المعروضة للأنظار والأفكار المفتوح، الذي لا تفتأ صفحاته تقلب فتتبدى في كل صفحة آية موحية تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي تصميم هذا البناء ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان، وأولو الألباب أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده وعلة نشأته وقوام فطرته بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود، ومشهد السماوات والأرض ومشهد اختلاف الليل والنهار، لو فتحنا له بصائرنا وقلوبنا وإدراكنا، لو تلقيناه كمشهد جديد تتفتح عليه العيون أول مرة، لو استنقذنا حسنا من هموده الألف وخموده التكرار؛ لارتعشت له رؤانا، واهتزت له مشاعرنا، ولأحسسنا أن وراء ما فيه من تناسق لابد من يد تنسق، ووراء ما فيه من نظام لابد من عقل يدبر، ووراء ما فيه من إحكام لابد من ناموس لا يتخلف وأن هذا كله لا يمكن أن يكون خداعاً ولا يمكن أن يكون جزافاً ولا يمكن إن يكون باطلاً .

والسياق القرآني هنا يصور خطوات الحركة النفسية التي ينشؤها استقبال مشهد السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار في مشاعر أولي الألباب تصويراً دقيقاً، وهو في الوقت ذاته

تصوير إيحائي يلفت القلوب إلى المنهج الصحيح في التعامل مع الكون، وفي التخاطب معه بلغته والتجاوب مع فطرته وحقيقته والانطباع بإشاراته وإيحاءاته ، ويجعل من كتاب الكون كتاب معرفة للإنسان المؤمن الموصول بالله، وبما تبدعه يد الله وإنه يقرن ابتداء بين توجه القلب إلى ذكر الله وعبادته قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، وبين التفكر في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار، فيسلك هذا التفكر مسلك العبادة، ويجعله جانباً من مشهد الذكر، فيوحي بهذا الجمع بين الحركتين بحقيقتين هامتين ، الحقيقة الأولى : أن التفكر في خلق الله والتدبر في كتاب الكون وتتبع قدرة الله في هذا الكون، هو عبادة الله من صميم العبادة، وذكر لله من صميم الذكر.. والثانية : أن آيات الله في الكون لا تتجلى على حقيقتها الموحية إلى للقلوب الذاكرة العابدة[1].

ونعى الله ﷻ على من لا يفقهون بقلوبهم، ومن لا يبصرون بأعينهم، ومن لا يسمعون بآذانهم، وجعلهم أضل من الأنعام فقال فيهم: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنْ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمْ الْغَافِلُونَ ﴾[2] .

(١) في ظلال القرآن (تفسير سورة آل عمران – تفسير الآيات ١٩٠ – ١٩٥) للشيخ سيد قطب ، ط : دار الشروق ، بيروت ، ط ١٩٧٢ م .
(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

ولو اتصلت العلوم الكونية التي تبحث في تصميم الكون وفي نواميسه وسننه، وفي قواه ومدخراته، وفي أسراره وطاقاته، لو اتصلت هذه العلوم بتذكر خالق هذا الكون ونكره والشعور بجلاله وفضله؛ لتحولت من فورها إلى عبادة لخالق هذا الكون وصلاة، ولاستقامت الحياة بهذه العلوم، واتجهت إلى الله، ولكن الاتجاه المادي الكافر يقطع ما بين الكون وخالقه، ويقطع ما بين العلوم الكونية والحقيقة الأزلية الأدبية، ومن هنا يتحول العلم أجمل هبة من الله للإنسان إلى لعنة تطارد الإنسان وتحيل حياته إلى جحيم منكرة، وإلى حياة قلقة مهددة وإلى خواء روحي يطارد الإنسان كالمارد الجبار[١] .

فيتبين بهذا أن التفكر في خلق الله تعالى من صفات المؤمنين الصادقين، أولى الألباب، وأصحاب العقول السليمة الراشدة .. فينبغي للمسلم أن يعتني به، فإن الإنسان مع طول الزمن والغفلة قد يتبلد إحساسه، فيغفل عن النظر والتفكر فيما حوله من المخلوقات العظيمة في هذا الكون.

والتفكر في آيات الله – تعالى – ليزيد الإيمان في القلب ويقويه ويرسخ اليقين، ويجلب الخشية لله – تعالى – وتعظيمه، وكلما كان الإنسان أكثر تفكراً وتأملاً في خلق الله، وأكثر علماً بالله تعالى وعظمته؛ كان أعظم خشية لله – تعالى – كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[٢] .

---

(١) في ظلال القرآن (تفسير سورة آل عمران – تفسير الآيات ١٩٠ – ١٩٥) للشيخ سيد قطب ، ط : دار الشروق ، بيروت ، ط ١٩٧٢ م .
(٢) سورة فاطر آية ٢٨ .

وإذا نظر العبد إلى ما خلق الله – تعالى – في هذا الكون من المخلوقات العظيمة، والآيات الكبيرة، وجد أن له في كل شيء آية تدل على أنه سبحانه إله واحد كامل العلم والقدرة، ولله در القائل:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

إذن فالتفكر في الآيات الكونية فريضة إسلامية، وهو عبادة من أعظم العبادات لله الخالق، ووسيلة من أجل الوسائل للتأكد على قدرة الخالق وتفرده – سبحانه – بالإلوهية والربوبية، والوحدانية، والتعرف على حقيقة الخلق، وحتمية الإفناء، وضرورة البعث، كما أن التفكر في هذه الآيات يعد مدخلاً عظيماً من مداخل الإيمان بالله، ويزيد به الإيمان في القلب ويقويه ويرسخ اليقين، ويجلب الخشية لله – تعالى – ولذا حض عليه القرآن الكريم، كما حضت عليه السنة النبوية المطهرة، وهو من صفات المؤمنين الصادقين، أولى الألباب. وأصحاب العقول السليمة الراشدة .

الخاتمة

الحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، ففي نهاية المطاف وبعد هذه الجولة المفيدة نحاول استخلاص النتائج التالية:

أولاً : يقصد بالآيات الكونية : الآيات التي تحدثت عن مخلوقات الله في هذا الفضاء الرحيب الممتد، وعلاماته الدالة على عظمة خالقها ، وسعة علمه – سبحانه – وتمام قدرته كالسماوات والأرض والشمس والقمر والجبال والنجوم والشجر والدواب .

ثانياً : للاهتمام بالإشارات الكونية في القرآن مبررات عديدة منها : أن القرآن الكريم نزل لنا لنفهمه، ولابد من شمول الدلالة المعرفة العصرية لفهم الآيات الكونية، ومنها أن الإشارات الكونية خير دليل عصري على صدق الوحي وصدق نبوة النبي الكريم، وأن هذه الآيات خير وسيلة لتبليغ غير المسلمين فضل الإسلام على غيره من الأديان، وفضل القرآن على غيره من الكتب، وأنها من أسلحتنا التي ندافع بها عن أنفسنا وأراضينا، وعن ديننا ومقدستنا وأعراضنا، خاصة إذا أحسنا توظيفها في الدعوة، وأن النظر في الآيات الكونية في القرآن على ضوء الحقائق العلمية من أوضح البراهين على الإعجاز العلمي في القرآن الكريم .

ثالثاً : لدراسة الآيات الكونية أهمية كبري إذ أنها دراسة ظواهر الكون من خلال آياته، وقراءة عصرية لدستور الأمة، ومحاولة عصرية لإعادة بناء حضارتنا الإسلامية والعربية ، وهي رابط للآيات بواقع الحياة وحاجات العصر، ودقائق العلوم، وتوسيع

الدائرة العلمية والثقافية لدي المسلم، وفيها توافق الدراسة للفطرة الإنسانية، التي بها تحقق العبودية لله، فتسخر العلوم المختلفة لإبراز عظمة الخالق، ودقة صنعه .

رابعاً : للتعامل مع الإشارات الكونية ضوابط لابد من الأخذ بها منها : حسن فهم نصوص القرآن الكريم، ودلالات ألفاظها، والتعرف على العلوم المتعلقة بها من أسباب نزول وناسخ ومنسوخ وقراءات وترادفات وإطلاق وتقييد وغير ذلك، مع مراعاة السياق القرآني والقواعد الأصولية، وعدم التكلف، وعدم الخوض في الغيبيات، وغيرها.

خامساً : تتناول سورة الغاشية عدة موضوعات رئيسية وهي: تهويل يوم القيامة، وبيان ما فيه من عقاب للكفار والمعرضين، ونعيم وحسن جزاء للمؤمنين الصادقين، والمطالبة في آيات الله الكونية، الواضحة أمام أعين الناس، تثبيت النبي الكريم في دعوته إلى الإسلام، وألا يعبأ بإعراض الكافرين، وما عليه إلا الدعوة والبيان والتذكير .

سادساً : تتمثل الآيات الكونية في سورة الغاشية في لفت أنظار الخلق إلى الإبل والسماء والجبال والأرض، فالإبل ذكرت في مواضع عديدة في القرآن الكريم بلفظها وبألفاظ أخرى، وهي جديرة بالنظر والتفكر لما تحويه من العجائب الكثيرة، وقد ورد لفظ " السماء " في ثلاثمائة وعشرة (٣١٠) مواضع في القرآن الكريم، منها ما ورد بصيغة الإفراد ومنها ما ورد بصيغة الجمع، وقد

أشارت هذه الآيات إلى حقائق علمية عديدة منها : التأكيد على أن السماء بناء محكم شديد الإحكام والترابط ، وأنها مرفوعة بقدرة الله (تعالى) بغير عمد مرئية، وأنها محكمة النسج شديدة الترابط، وورد لفظ الجبال ومشتقاته في القرآن الكريم ٣٩ مرة ، من هذه الآيات ما يبين دورها في تثبيت الأرض، وما يصفها بأنها أوتاد، وما يصفها بأنها قائمة منتصبة، ومنها ما يصور ضخامتها وارتفاعها وطبيعتها الصلبة، إلى غير ذلك من الأوصاف. وورد ذكر لفظ (الأرض) في أربعمائة وواحد وستين(٤٦١) موضعاً في القرآن الكريم، منها ما يشير إلى الأرض ككل في مقابلة السماء، ومنها ما يشير إلى اليابسة التي نحيا عليها كلها، أو إلى جزء منها، ومنها ما يشير إلى التربة التي تغطي صخور الغلاف الصخري للأرض .

سابعاً : الآيات الكونية في القرآن الكريم وثيقة الصلة بالدعوة إلى الله ﷻ بل هي لب الدعوة من حيث أركانها وأساليبها وميادينها، لما تحويه من أهداف رئيسة عامة، من مثل الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد الخالق القادر ، والرد على حجج المنكرين والمشركين، وبيان سر خلق الإنسان ووجوده في هذا الكون، وأهداف فرعية خاصة، من مثل فهم الكون وإشاراته وما فيه من مخلوقات لله – سبحانه – ، كما أن هذه الآيات تظهر الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في عصر الطفرة العلمية ، والعلم بالإشارات الكونية له أفضل الأثر على حياة الداعية المسلم من ناحية ثقافته وعقيدته ، ثم على سلوكه وأخلاقه، وهذا ينعكس على المدعو ،

وواجب العلماء توظيف جوانب هذه الإشارات الكونية لخدمة تبليغ الدعوة إلى الله، بما يتناسب مع الطفرة العلمية في العصر الحديث .

ثامناً : التفكر في الآيات الكونية فريضة إسلامية، وهو عبادة من أعظم العبادات لله الخالق ، ووسيلة من أجل الوسائل للتأكيد على قدرة الخالق وتفرده – سبحانه – بالإلوهية والربوبوية، والوحدانية، والتعرف على حقيقة الخلق، وحتمية الإفناء ، وضرورة البعث، كما أن التفكر فيها يعد مدخلاً عظيماً من مداخل الإيمان بالله، ويزيد به الإيمان في القلب ويقويه ويرسخ اليقين ، ويجلب الخشية لله – تعالى – ولذا حض عليه القرآن الكريم، وهو من صفات المؤمنين الصادقين أصحاب العقول الراشدة . فهل نعى كل ذلك ونعمل به !!

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١ – أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن – د. عبد الله شحاته ، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢٠٠٢م .

٢ – التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي – ت ١٣٩٣ هـ . ط الدار التونسية للنشر .

٣ – التصوير الفني في القرآن – للشيخ سيد قطب ، ط دار المعارف – القاهرة ، ط تاسعة .

٤ – التعريفات – على بن محمد بن علي الجرجاني – ٧٤٠ – ٨١٦ هـ ، ط دار الكتاب العربي – بيروت ، ط أولى ١٤٠٥هـ ، تحقيق إبراهيم الإبياري .

٥ – التبيان في تفسير غريب القرآن – لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ٨٥٣ – ٨١٥ هـ – ط دار الصحابة للتراث بطنطا – مصر ، ط أولى ١٩٩٢م ، تحقيق د/ فتحي أنور الدابولي .

٦ – تفسير البيضاوي (للإمام البيضاوي ت ٧٩١هـ) ط دار الفكر – بيروت ١٤١٦هـ ١٩٩٦م . تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة .

٧ – تفسير البحر المحيط – محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي ٦٥٤ – ٧٥٤ هـ ط دار الفكر للطباعة ، ط ثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

٨ - تفسير الجلالين - عبد الرحمن بن أبي بكر (جلال الدين السيوطي) ، ومحمد بن أحمد (جلال الدين المحلي) ، ط دار الحديث ، القاهرة ، ط أولى .

٩ - تفسير القرآن - للإمام العلامة أبي المظفر السمعاني (منصور بن محمد بن عبد الجبار التميمي المروزي الشافعي ٤٢٦ - ٢٨٩هـ) ، ط دار الوطن بالرياض تحقيق : أبي بلال غنيم بن عباس بن غنيم .

١٠- تفسير القرآن العظيم - لابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي أبو الفداء ت ٧٧٤هـ) ط دار الفكر- بيروت ١٤٠١هـ .

١١- تفسير المراغي - للأستاذ الشيخ أحمد مصطفي المراغي ، ط مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

١٢- التفسير والمفسرون- د. محمد حسين الذهبي . ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة ، ط ثانية ١٣٩٦هـ .

١٣- التوقيف على مهمات التعاريف- محمد بن عبد الرؤوف المناوي ٩٥٢-١٠٣١هـ ط دار الفكر المعاصر، بيروت ، تحقيق محمد رضوان الداية ، ط أولى ١٤١٠هـ .

١٤- جامع البيان في تأويل آي القرآن (تفسير الطبري) محمد بن يزيد جرير بن غالب الطبري - أبو جعفر ٢٢٤ - ٣١٠ هـ ط دار الفكر - بيروت ١٤٠٥هـ .

٢٣- صحيح الإمام البخاري(أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري) ط دار المعرفة – بيروت .

٢٤- صحيح الإمام مسلم(مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت ٢٦١هـ) تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الكتب العلمية – بيروت .

٢٥- صفوة التفاسير – الشيخ محمد على الصابوني ، ط دار القرآن الكريم – بيروت ط ثانية ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٢٦- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني (الإمام محمد بن على الشوكاني ١١٧٣ – ١٢٥٠ هـ) ط دار الكتاب العربي – بيروت ، ط ثانية ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

٢٧- في ظلال القرآن – للشيخ سيد قطب ، ط دار الشروق – بيروت ، ط ١٧٩٢م.

٢٨- قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها بقلم الأستاذ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار (بحث مقدم إلى مؤتمر كلية الشريعة بجامعة الزرقاء) .

٢٩- لسان العرب – للعلامة ابن منظور (محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ٦٣٠ – ٧١١هـ) ط دار الفكر، دار صادر – بيروت – لبنان ، ط ثالثة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

٣٠- مسند الإمام أحمد (أحمد بن حنبل ٢٤١هـ) مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط ١ ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م . تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي وعادل مرشد وصحبهم.

١٥- الجامع الصحيح للترمذي (أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩هـ) تحقيق إبراهيم عطوة عوض ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٦- دائرة المعارف البريطانية " الموسوعة البريطانية الجديدة" (في ٣٠ مجلد) ط ١٩٧٥م ، اسم الناشر : هيلين همنغواي بنتون .

١٧- رحيق العلم والإيمان الدكتور أحمد فؤاد باشا ، ط الحلبي بمصر .

١٨- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني – للعلامة : محمود الآلوسي أبو الفضل ت ١٢٧٠هـ ، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت .

١٩- السماء في القرآن الكرين(من آيات الإعجاز العلمي)، الأستاذ الدكتور/ زغلول راغب محمد النجار ، ط دار المعرفة ، بيروت – لبنان ، ط ثانية ١٤٢٥هـ ٢٠٠٥م .

٢٠- سنن ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٥هـ) ، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي – ط دار الحديث القاهرة ١٩٩٤م .

٢١- سنن أبي داود (الإمام الحافظ أبو داور سليمان بن الأشعث السجستاني) ط المكتبة العصرية – صيدا – بيروت .

٢٢- سنن النسائي (أبو عبد الرحمن أحمد بن سيب بن علي) ، بشرح جلال الدين السيوطي وحاشية السندي ط دار الفكر ١٣٤٨هـ .

٣١- معالم التنزيل للإمام أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي ت ٥١٦ هـ ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار، ط دار المعرفة – بيروت – ط خامسة ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢م .

٣٢- معجم المصطلحات الجيولوجية/ معهد الجيولوجيا الأمريكي ، ط معادة ١٩٧٦م ، كتب أنشور .

٣٣- المعجم المفهرس للفاظ القرآن الكريم- محمد فؤاد عبد الباقي، ط دار الحديث بالقاهرة ، ط ثالثة ١٤١١هـ /١٩٩١م .

٣٤- مفردات ألفاظ القرآن للراغب الإصفاني ، ط مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م .

٣٥- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم – د. زغلول النجار – ط مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة ، ط عاشرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م ، تقديم : أحمد فراج .

٣٦- من آيات الإعجاز العلمي الجزء الثالث (المفهوم العلمي للجبال في القرآن الكريم) الدكتور/ زغلول النجار ، مكتبة الشروق الدولية ، القاهرة . ط سابعة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .

٣٧- النبات في القرآن الكريم (من آيات الإعجاز العلمي) – د. زغلول النجار ، ط : مكتبة الشروق الدولية . ط أولى ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م .

٣٨- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم - للشيخ محمد الغزالي . ط دار الشروق - القاهرة ، ط ثامنة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م .

٣٩- من أسرار القرآن (الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية "١١٥") ، مقال بقلم د. زغلول النجار - عرض موجز لسورة الغاشية - جريد الأهرام القاهرية - العدد ٤٢٧٧٠ السنة ١٢٧ بتاريخ الاثنين ١٢ يناير ٢٠٠٤م باب : قضايا وآراء .

٤٠- الشبكة العالمية للإنترنت (موقع رابطة العالم الإسلامي ، هيئة الإعجاز العلمي) بحث: الإعجاز العلمي تأصيلاً ومنهجاً، من أبحاث : الأمانة العامة لهيئة الإعجاز العلمي www. nooran. org

٤١- الشبكة العالمية للإنترنت، موقع : الهيئة العالمية للإعجاز العلميwww. nooran. org بحث (السماء بناء وزينة) إدريس الأشقر .

٤٢- الشبكة العالمية للإنترنت موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة . موقع www. 55A. net ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين ﴾ بقلم الدكتور / زغلول النجار .

فهرس الموضوعات

المقدمة ٣

المبحث الأول :

التعريف بالآيات الكونية وفوائد دراستها ٧

التعريف بالآيات الكونية ٧

مبررات الاهتمام بالإشارات الكونية ١١

فوائد دراسة الآيات الكونية ١٥

ضوابط التعامل مع الآيات الكونية ١٩

المبحث الثاني :

التعريف بسورة الغاشية وما تتناول من موضوعات ٢٤

تفسير موجز لسورة الغاشية ٢٤

الموضوعات التي تتناولها سورة الغاشية ٣٧

صلة الآيات الكونية بحديث الغاشية ٣٨

المبحث الثالث :

الآيات الكونية في سورة الغاشية ٤٤

﴿ أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ ٤٤

﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ ٥٨

﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ ٦٤
﴿ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ ٧٥
المبحث الرابع:
صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة ٨٠
صلة الآيات الكونية بالدعوة والدعاة ٨٠
واجب المسلم تجاه الآيات الكونية ٨٨
الخاتمة ١٠٣
المراجع ١٠٧
الفهرس ١١٤